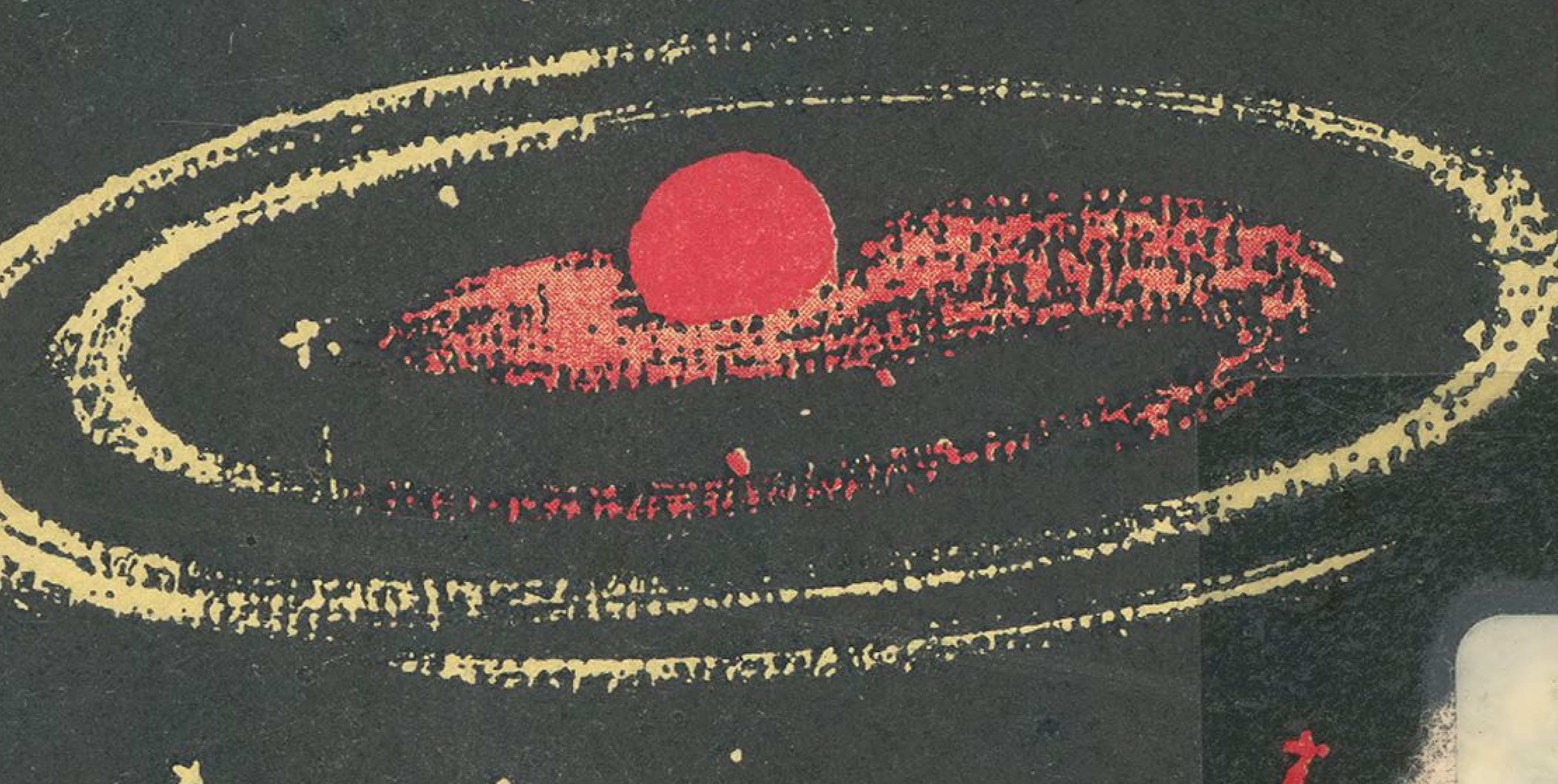
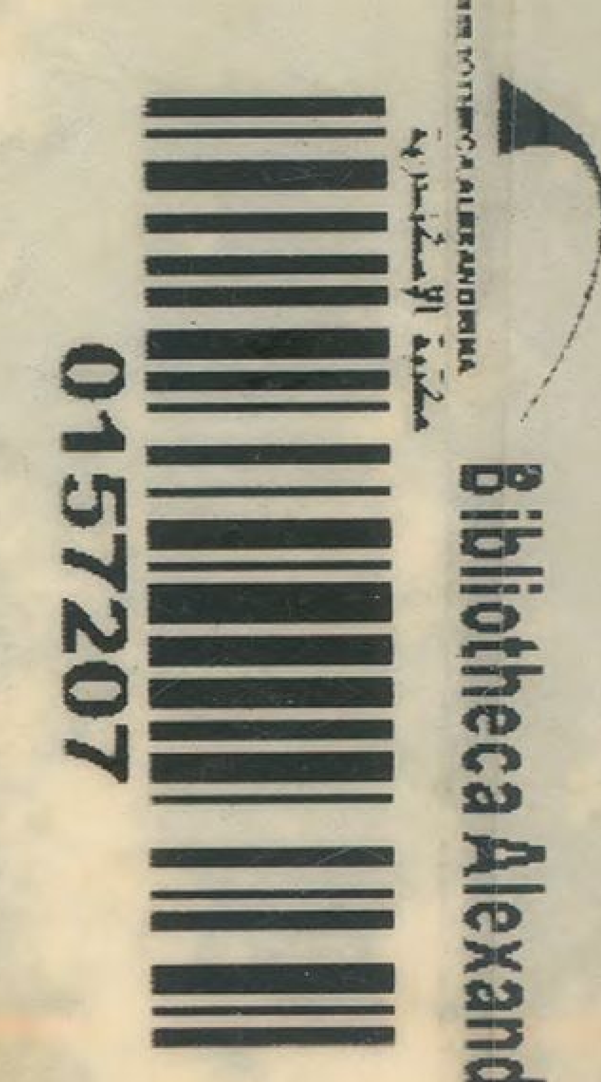
عبد الرزاق نوفل

بين الدين والعلم



الناشر: مكتبة وهبة





عبد الرزاق نوفل

بين
الدين والعلم



الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية بعابدين

الطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

« وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِى أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هوَ الْحَقَّ وَيَهْدِى إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ » .

« قرآن كريم »
(٦ سورة سبأ)

مقدمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

« الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ » .

« قرآن كريم ١٨ سورة الزمر »

الحمد لله الذى لا إله إلا هو . . . شاءت إرادته جل شأنه نخص الإنسان بأكبر النعم وميزه على كل ما خلق بخير ما وهب . . . فعلم الإنسان ما لم يعلم ، وأرسل الرسل والأنبياء مبشرين ومنذرين وداعين إلى الدين . . ووهبه العقل ليحفظ به عليه علمه ويعرف به دينه . وبهذا أصبح الدين والعلم مما تميز به الإنسان على غيره من الخلق إن لم يكن أهم ما يتميز به .

والمتدبر لأغراض الدين والعلم يجد أنهما متحدان فى الهدف . . . متماثلان فى الغاية . . . أما مصدرهما فهو الله الواحد الأحد . . . الفرد الصمد سبحانه وتعالى . .

فإذا كان الدين والعلم هدفهما واحد ومصدرهما واحد . . فكيف

ولماذا يتردد القول على فترات من الزمن بمعارضة العلم للدين واختلاف الرأى بينهما ؟ . . .

لقد أثبت البحث أن هـذه الأقوال إن هى إلا أباطيل مغرضة تهدف إلى محاربة الدين وأنها حلقة من سلسلة تتضمن وسائل أخرى تحاول هدم الدين بالتشكيك فى معتقداته وإظهار معارضة العلم لآياته . .

كما عرف أن هناك من الأسباب ما قد تؤدى إلى إشاعة مثل هذه الآراء منها قصور العلم عن إدراك بعض حقائق الدين لا سيما ما يختص بالحياة الآخرة والحساب والعقاب والثواب والقيامة ، إذ أن ذلك لا يمكن أن يكون موضع دراسات تجريبية يتناولها العلم فى ميادين أبحاثه ويجرى عليها الاختبارات فى بواتقه وأنابيبه . . . ومنها سبق الدين فى ميادين العلم بإيراد حقائق لم يصل إليها العلم بعد ، فيظهر الدين وكأنه يعارض العلم . . . لذلك نجد أن الأزمنة التى تروج فيها شائعات معارضة العلم للدين إنما هى أزمنة الجدب العلمى وانخفاض مستوياته بعكس الآونة التى تتميز بالتقدم العلمى نجد أنها تتمتع بإيمان عميق وتتمسك بالعلم والدين . وأصبح بذلك من المعروف الذى لا شك فيه أن الإلحاد والعلم نقيضان لا يجتمعان وخصمان لا يتفقان .

وفى هذه الفترة من تاريخ البشرية التى وثب فيها العلم وثبته العالية

والتى وصل بها الإنسان إلى ما لم يصل غيره إليه فى تاريخه فى مختلف ميادينه . . . بل وصل إلى ميدان لم يكن يرجوه فى حلم أو رجاء من قبل . . نخرج من رحاب الأرض إلى أجواز الفضاء . . وهو الآن فى طريقه إلى زيارة كواكب السماء . . فى هذه الفترة التى تعتبر قمة فى تاريخ علم الإنسان . . . هل يعارض العلم الدين ويحاربه ؟ . . . ويجافيه ويصارعه . . ؟ أم ترى يوافقه ويؤيده ؟ . . . ويعاضده ويسانده ؟ .

فى هـــذه الفترة دعوت الله جل شأنه أن يصاحبنى توفيقه الذى لازمنى فأخرجت بفضل منه ورحمته كتبى السابقة لأخرج كتاباً يربط بين العلم والدين ، فكان كتابى هـذا الذى أقدمه إلى هؤلاء الذين قد تكون أقلقتهم كتابات الملحدين وأباطيل المغرضين بدعاويهم الباطلة عن معارضة العلم للدين . . . ليتأكدوا أنه لا خلاف بين العلم والدين .

وإلى جيل شبابنا الذى تميز عصره بالعلم والمعرفة ليشهد أن حقائق العلم إنما هى آيات الدين . . وليكن كتابى هذا دعوة لهم للاستزادة من علمهم والتمسك بدينهم .

وإلى الباحثين الذين يريدون أن يدرسوا الأديان بعد أن قضوا زمنا فى الإلحاد ثم تحقق لهم عن طريق التقدم العلمى وجوب الإيمان

أقدم كتابى (بين الدين والعلم) ليعرفوا أن الإسلام دعوة إلى العلم والدين . . . وأنه الدين الذى لا يناقضه العلم ولا يعارضه العلماء . . بل يؤيده العلم ويدعو إليه العلماء . .

الله أسأل أن يكتب لى ولمن قرأ من الثواب أكثر مما ندعو . . . ومن الرحمة فوق ما نرجو . . والله ولى التوفيق .

« وَقُلْ رَبِّ زِدْنِى عِلْماً » .

(قرآن كريم ١١٤ سورة طه)

الإهداء

إلى أهل العلم . . . طلابه وقادته

إلى رجال الدين . . . وإلى كل دعاته

متى بَدَأَ العلم .. ؟
ومتى بَدَأَ الدِّين .. ؟



متى بدأ العلم . . . ؟

وكيف بدأ . . . ؟

يقول جورج سارتون عن بداية العلم فى موسوعته (تاريخ العلم) « إنه بدأ حينما عمد الناس إلى حل عديد من معضلات الحياة . صحيح إن هذه المحاولات الأولى لم تكن إلا وسائل لتحقيق أغراض وقتية ولكنها كانت كافية لبدء العلم ، وعلى توالى الأيام خضعت هذه الوسائل لعمليات الموازنة والتعميم والتبرير والتبسيط والترابط والتكامل ، وهكذا أخذت مادة العلم تنشأ فى بطء »

فيا ترى متى بدأ الإنسان فى حل أول معضلات حياته ؟ . . . إن هذا التاريخ الذى يحدد أول محاولة للإنسان فى التغلب على ظروف غير ملائمة أو القضاء ما يحقق له حاجة حتى ولو كانت طارئة ، هو تاريخ العلم . فمتى بدأ العلم ؟ . .

إنه لما لاشك فيه أن الإنسان الأول قد دخل مغارة أو آوى إلى كهف ذات مرة . . . وقد يكون ذلك عن طريق الإلهام ، وقد يكون مصادفة . . فوجد أنه قد أمن فيه من غوائل الجو . . برده أو حره . . شمسه أو مطره . . وأتقى به شر أعدائه الأقوياء . . الحيوانات

الكاسرة . . والوحوش الضارية . . والطيور الجارحة . . وعندما عاد مرة أخرى إلى المغارة أو الكهف إنما كان لأنه وصل إلى درجة من العلم عرف بها أن هذا المكان إنما يحميه من مختلف أعدائه . . فمتى يا ترى دخل المغارة أول مرة ؟ . . ثم متى عاد إليها فى المرة الثانية ؟

إن التاريخ يحدثنا عن طريق الحفريات وما يكتشف من آثار وبقايا أن العصور الأولى التى عاش فيها الإنسان الأول كانت الأرض تعج بالحيوانات تزحم البر والبحر ، ولم تكن هذه الحيوانات تشبه تلك التى نراها الآن ، بل هى أضخم مما قد يتخيله الإنسان ، فما يروى فى الأساطير عن أصناف من الحيوانات تبلغ أطوالها حوالى المائة قدم ، وترتفع إلى عشرات الأقدام ، وتدب على الأرض ، إذ تمشى بقوة تثير الخوف فى الكائنات ، وقد أطلق العلماء على بعضها أسماء علمية وضمنوها أوصافا نتيجة لمشاهداتهم لبقاياها وآثارها . فمما جاء فى كتاب (العالم الذى نعيش فيه) لجرترود هارتمان : (أطلق العلماء على أحد هذه الحيوانات اسم (المثلث القرون) أو (التريسرابتوس) وكان حيوانا سمجا غبيا ضخما هائل الجثة شبيها بعض الشبه بفرس البحر ، يزن مخه أقل من رطل ، ويزن باقى جسمه أربعين طنا ، وكان فكاه ينتهيان بمنقار قرنى عظيم الحجم ، وعلى وجهه ثلاثة قرون ضخمة ، قرن فوق كل عين من عينيه وقرن

فوق أنفه ، وكان له فى مؤخر رأسه لوحة عظيمة ضخمة كأنها خوذة رجل المطافئ ، ولذلك كان أبعد ما يكون عن أن يمسه غيره بأذى. وحيوان (البرنتسورس) الذى تكاد الأرض تميد تحت أقدامه ، وكان طوله يتراوح بين أربعين قدما وستين ، ويتراوح ارتفاعه بين عشرة أقدام وأربعة عشر قدما ، ويبلغ حجمه عشرة أمثال الفيل العادى ، وتبلغ زنته خمسة وعشرين طنا ، وكان حيوانا غبيا بطىء الحركة ، وله عنق وذيل طويلان) . وغير ذلك من الحيوانات التى تسمى بالمدرعة ، إذ أنها ذات دورع وقشور قرنية ، لبعضها قرون فى الجبهة ولبعضها صف طويل من القشور القرنية المنبثة فوق الظهر ، ولها على ذيلها الطويل زوجان أو أكثر من الأشواك الطويلة تستخدمها فى قتال أعدائها .

أما الطيور فإنها تختلف عما نعرفه حاليا ، فقد كانت ذات أحجام خيالية ، ولأجنحتها أظافر طويلة ولأجسامها قشور صابة ، ولقد كانت أعدادها بكثرة هائلة .

ولقد عاش الإنسان الأول برغم وجود هذه الحيوانات الكاسرة وقد ملأت الأرض . . وهذه الطيور الجارحة وقد سيطرت على الجو . . فلا بد أنه احتمى منها منذ أول ساعات وجوده على الأرض . . بأن لجأ إلى الكهوف والمغارات . .

وبديهى أن الإنسان الأول قد وجد حوله كل أصناف الغذاء التى يحتاجها جسمه ، من خضر وحبوب وبقول إلى فاكهة ولأنه عاش ونما فقد أكل منها . . أكل ما يفيده وترك ماقد يصيبه ، فإن الدورة الزراعية والحلقة النباتية تضم بينها بعض النبات الضار بالإنسان ، ويقينا تم ذلك أول مرة بطريقة ما ، ثم تعلم الإنسان بعد ذلك كيف يأكل وماذا يأكل . وكان ذلك أيضاً فى الساعات الأولى إن لم يكن فى اللحظات الأولى للإنسان . . وحرص الإنسان على أن يطمئن بوجود ما يكيفه من هذه النباتات التى وجد أنها ذات طعم سائغ ومذاق جميل . فراقب أصنافها مراقبة دقيقة وتعلم عن طريق ذلك الزراعة ، إذ شاهد أن ما بقى من الحبوب فى أعوادها عندما تساقط على الأرض نبت مره أخرى بكميات مضاعفة .

ونزلت جذوة نار من السماء . . ربما صعق البرق شجرة . أو احتك غصنان جافان بفعل ريح شديدة . . وربما بسبب غير ذلك . كانت نتيجته أن اشتعلت بعض الأعشاب الجافة والشجيرات . . فوجد الإنسان الأول أنها بعثت فيه دفئا . . ولما خبت قليلا اقترب منها يمتحنها فوجد أنها غيرت شكل الطيور والحيوانات بل ورائحتها وطعمها وإلى الأحسن والأيسر . . فتعلم أن يطهى طعامه كما شاهد عمليا أنها اذا أصابت

أعواداً جافة أو حشائش أو أخشابا عادت إليها قوتها وزاد اشتعالها، فتعلم كيف يحفظ جذوة النار . . . وكيف يغذيها . . ثم كيف يوقدها . . ويستعملها فى أغراضه الشتى . .

هـذا هو منطق العقل عن طريق الأدلة الاستنتاجية ، أما العلم عن طريق أدلته المشاهدة الملموسة فيقرر المؤرخون عن طريق ما شاهدوه على أن عصور ما قبل التاريخ كانت تتميز بعلوم غزيرة ومعارف واسعة فى جميع نواحى الحياة. فتقدم الطب والجراحة يؤكده ويظهره الجماجم التى اكتشفها العلماء وترجع تواريخها إلى عصور ماقبل التاريخ ، ووجد بها آثار تربنة وبجوارها سكاكين حجرية وأحجاراً مثقوبة وهى الأدوات التى استعملت فى هذه الجراحة . بل إن إنسان ما قبل التاريخ ، عرف الإحصاء كما نعرفه نحن حاليا إذ يوجد فى المتحف الأهلى بمدينة واشنطون خمس حزم من القصب تدل على إحصاء قام به هنود كومانشه والذين كان مقرهم الجزء الغربى من ولاية ويومنج ثم انتشروا بين كنساس والمكسيك الشمالية ، وتشير هذه الحزم إلى عدد النساء فى القرية وعدد الذكور وعدد المحاربين وعدد الأطفال وعدد المساكن .

وإذا تركنا هذه العصور وانتقلنا إلى عصور التاريخ التى لا يمكن أن يرقى إليها الشك أو الجدل ، إذ أن ما وصل الإنسان إلى معرفته عنها

إنما عن طريق الآثار التى ما زالت قائمة والسطور التى حتى الآن أمامنا مبقوشة لتروى للبشر قصة الصدق عن طريق الأدلة القاطعة ومنطق الحق بالشواهد الواضحة

فالفراعنة الذين عاشوا فى تاريخ يبلغ بضعة آلاف من السنين قبل الميلاد عرفوا الكتابة فنقشوا على الأحجار لغة ما زالت قائمة نراها وتشهد على قدر ما وصلوا إليه ، بل إنهم اخترعوا ورق البردى ليكتبوا عليه ، وهذه عملية تشهد لهم بالخبرة والدراية والعلم والفن . وعلم الفلك وصل الفراعنة فيه إلى درجة جعلتهم يقيمون المزاول الشمسية وأدوات الرصد التى ما زالت بقاياها بالمتاحف فى القاهرة وبرلين وغيرها . أما علم الهندسة والعمارة فلا يحتاج الأمر إلى دليل على مبلغ ما وصلوا إليه بعد أضخم وأكبر معجزة فنية معمارية شهد لها التاريخ حتى الآن ... الأهرام الخالدة .. التى ما زال العلماء فى حيرة من أمر بنائها .. وكيف قدروا حسابها .. ولاسيا بعد أن كشفت الأبحاث الحديثة على أن أحجار الأهرام وأطوالها وأماكن وضعها وزوايا أضلاعه إنما يهدف إلى بيان أمر أو يقص واقعة ما .. بل هذه المسلات الجرانيتية كيف قطعت من محاجر أسوان ؟ وبأى أدوات أمكن قطع هذا الصخر لأصلد ؟ وكيف نقشت عليها هذه النقوش التى مازالت واضحة ؟ وكيف نقلت إلى الأماكن المقررة لها ؟ وكيف أقيمت عليها ؟ .

ويقرر البحاث أن المهندس الفرعونى لا يتصف بالمهارة والنبوغ والمقدرة فحسب بل إنه يمتاز كذلك بالأناقة فى عمله، وأكبر شاهد على أناقته ذلك التهذيب الوضح فى أضلاع المسلة المصرية . لقد عرف الفراعنة الأرقام والأعداد الكبيرة ونبغوا فى الرياضة والإحصاء ففى متحف الأشموليان باكسفورد يوجد صولجان يرجع تاريخه إلى عهد الملك نارمر قبل الأسرة الأولى ، أى قبل عام ٣٤٠٠ قبل الميلاد يسجل الاستيلاء على ١٢٠ألف أسير ، و٤٠٠ألف ثور، و١٫٤٢٢٫٠٠٠ من الماعز وكذلك جمع العالم ارشيبالد حوالى ستا وثلاثين وثيقة أصلية خاصة بالرياضيات فى العهد الآنف الذكر تضم عمليات جمع وطرح وضرب وقسمة لأعداد وكسور .

وأما الطب فإن أقدم ما عرف عنه عن طريق الأدلة والآثار فيرجع إلى الطبيب ايمحتب وزير الملك زوسر مؤسس الأسرة الثالثة فى القرن الثلاثين قبل الميلاد . وفى هذه الفترة السحيقة الممعنة فى القدم نجد فى النقوش وعلى الآثار ما يدل على إجراء عمليات جراحية لفتح خراج تحت ضرس وبتوقيع طبيب الأسنان ونرى كذلك اسم طبيب العيون بالقصر والعارف بالإفرازات الباطنية أى الطبيب الباطنى ، وذلك يدل على أن تقسيم الطب إلى فروع كان معروفا منذ ذلك الحين. وتعتبر البرديات الطبية التى اكتشفت عند قدماء المصريين أوضح دليل على مدى ما كان

غاية الطب وقتذاك ، فبردى كاهون وجاردينر تتعلقان بأمراض الأطفال والنساء، وعلاج الماشية ، أو ما يسمى حاليا بالطب البيطرى ؛ وأما بردتى سمث وايبرز ففيهما قواعد الطب العـامة من فحص وتشخيص وعلم وظائف الأعضاء وطرق العلاج والجراحة ومن روائع ما جاء فيهما فى الفحص . ويظهر مدى تقدم الطب والعلم عندهم مانصه (إذا فحصت رجلا مصابا) وهذا يشبه إلى حد كبير ما تتبعه وسائل الدراسات الحديثة فى الطب وكذلك نص بردة سميث التى تقول (إذا فحصت إنسانا مصابا بجرح مفتوح فى رأسه متوغل فى العظم ومهشم لجمجمته وفاتح للمخ فى جمجمته فعليك أن تجس جرحه فإذا وجدت أن ذلك الـكسر فى جمجمته شبيه بتلك التموجات التى تتـكون فى سطح النحاس المنصهر وتحس شيئاً يخفق ويضطرب تحت أصابعك مثل الجزء اللين فى مقدم رأس الطفل قبل أن تـكتمل عظامه — وإذا لم يحدث خفقـان أو اضطراب تحت أصابعك حتى ينفتح المخ فى جمجمته ويفرز دما من فتحتى أنفه ويقاسى من تصلب عنقه) . . ألا يدل هذا النص على أن كاتب البردة قد عرف وجود الأغشية السحائية وأدرك تطورات تـكون العظام فى رأس الطفل .

ووصل الإنسان فى هذه الحقبة من التاريخ إلى علوم عجز عنها

الإنسان فى هذا العصر ، بل عجز حتى عن الوقوف على سرها أو معرفة لـكنهها .. فحفظ الألوان على درجتها من الوضوح والنقاء كما يشاهد فى الصور الملونة التى تزين جدر المقابر والتى يخيل للمشاهد لها أنها وكأن من صورها قد انتهى من عمله منذ لحظات أو أيام ولا يعقل أن يكون ذلك منذ آلاف السنين . . ترى أى مادة تلك التى أضيفت إلى الألوان فجعلتها تظل هكذا زاهية على مر السنين حتى ولو كانت آلافا ؟ وهذه الثياب التى عرف إنسان العصر الحديث أنها لاتفترق عما يغزله وينسجه ومادتها هى نفس مادة الثياب الحالية كيف أمكن لإنسان ذلك العصر الغابر أن يجعل هذه الثياب لايتطرق إليها البلى . . ولا يصيبها الانحلال . . لقد عجز الإنسان فى هذا العصر عن أن يقوم بما قام به جده فى عهد الفراعنة . . فان أجسادهم التى ظلت فى قبورها بعيدة عن كل مايجب أن يصيبها من تعفن وتحلل وقاومت هذه العوامل الطبيعية المؤكدة آلاف السنين، لم يصل الإنسان إلى معرفة السر الذى عامل به الفراعنة أجسادهم لتظل هـكذا على حالها . .

هذا بعض ما يدل على علم الإنسان فى فجر التاريخ عن طريق شواهد ثابتة وأدلة قاطعة ، وأما اهتمام الإنسان بالعلم فى تلك العصور

فيظهره تلك الوصية العجيبة التي وجدت على آثارهم ونصها : (لا تكن متعجرفا بسبب علمك ولا تنتفخ أوداجك لأنك رجل عالم . استشر الجاهل كما تستشير العالم لأن حدود الفن لا يمكن الوصول إليها وليس هناك فنان كامل فى براعته . الكلام الطيب أندر من الحجر الأخضر الثمين ، ومع ذلك فإنه يوجد أحيانا فى حديث الجوارى العاملات فى طحن الغلال بين أحجار الرحى) . أليس فى ذلك ما يؤكد أن العلم كان هدف إنسان ذلك الوقت ؟ . . وأليس فى هذا ما يدل على مبلغ ما وصل إليه علم الإنسان فى ذلك العصر . . ؟ . .

هذه القمة من العلم التى كان عليها إنسان تلك العصور القديمة وسجلها التاريخ فى أول صفحة من صفحاته ماذا تعنى ؟ .. و إلى ماذا تشير ..؟. وأى قصة عن الإنسان الأول تحكى ؟ . .

هل يمكن أن يكون هذا الإنسان قد عرف هذه العلوم طفرة ووصل إلى هذه الدرجة فيها بلا وقت أو زمن . ؟ أم ترى لا بد أنه قد وصل إلى الفرع الواحد من هذه العلوم عن طريق المشاهدة أولا . . ثم الملاحظة المستمرة . . ثم التجريب وانتظار النتائج . . و إعادة هذه التجارب . . ثم وضع الأساس نتيجة لما وصل إليه . . والعمل على تحسينه ثم نشر ما وصل إليه على نطاق ضيق ثم التوسع فيه . وفى كل

دور من هذه الأدوار تستمر التجارب . . والمشاهدة والملاحظة وتعديل نتائجها . . وتغيير أوضاعها . . حتى يصل إلى اكتشاف أو اختراع . أو حقيقة و بعد المدد الطويلة . . والطويلة جداً يصل إلى ما يمكن أن أن نسميه نهضة علمية فى فرع من الفروع . . .

وحتى يمكن أن نتصور المدد التى تنقضى قبل أن يصل الإنسان بعدها إلى درجة علمية يمكن أخذها فى الاعتبار . . نأخذ مثلا المحراث البلدى الذى ما زال يعمل به الفلاح فى جهات مختلفة من العالم فى حرث الأرض . هذا المحراث وجد مرسوما بوضعه وشكله الحالى تماما على قبور الفراعنة ، وفى خلال خمسة آلاف سنة فى المتوسط لم يدخل عليه أية تحسينات إطلاقاً ، هذا إذا استبعدنا من تقديرنا تلك الآلات الميكانيكية الحديثة التى تقوم بعمل المحراث تطبيقاً لطريقة عمله .. فياترى كم من السنين مرت منذ أن لاحظ الإنسان أن النبات يحسن نموه إذا قلبت التربة ؟ وكم سنة ظل يراقب ذلك ، حتى تأكد من هذه الحقيقة ؟ ثم قلب التربة حول النباتات بعصا اتفق أن وجدها من غصن شجرة ثم كم من الوقت استعمل هذا الغصن ؟. و بعد كم من السنين دبب طرف العصا . ؟ إن هذا الغصن المدبب الطرف هو المحراث الأول . . فياترى كم من الوقت مر بعد ذلك حتى استبدل الإنسان بالغصن الصغير قطعة

كبيرة من الخشب ؟ ثم استخدم بعد كم من الأجيال السلاح الحديد ليكون أقوى من رأس الغصن المدبب ؟ قطعاً استخدمه بعد أن اكتشف المعادن . . ثم متى استخدم الحصان أو الثور فى جر هذا المحراث ؟ . لا يمكن للتاريخ أن يحصى هذه السنين ولا يمكن أن يتفق اثنان فى هذا التفكير . . ولكل أن يتخيل من السنين مايشاء ولكن لا بد أن تكون آلاف السنين بل عشرات الآلاف إن لم تكن مئات الآلاف قد مرت على الإنسان منذ أن شق الأرض بغصن جاف إلى أن استخدم المحراث الحالى .

وهكذا يقص علينا التاريخ قصة الحق ، وتدل الآثار على أن الإنسان فى أول التاريخ كان على درجة عالية من العلم فى مختلف ميادينه بل إنه فى بعض أفرع العلم قد وصل إلى قمة لم يصل إليها الإنسان الحديث . ألا يدل ذلك على أن بداية العلم عند الإنسان إنما كانت متقدمة جداً . . وأنها بدأت منذ أن حل الإنسان أول مشكلاته فى الحياة . . وهذه المشكلات بدأت لحظة أن وجد نفسه فى حاجة إلى أن يحتمى من الجو . . ومن الحيوانات . . ووجد أنه فى حاجة إلى أن يأكل . . وأن يكتسى . . وهذا كله يشير إلى حقيقة لا تقبل الشك أو الجدل هى أن العلم بدأ منذ بدأ الإنسان .

فمتى يا ترى بدأ الدين . . ؟

وكيف بدأ . . ؟

لم يصل العلم عن طريق القطع إلى تحديد زمن بدأ فيه الدين فإن الدراسات التى قام بها العلماء على الآثار التى خلفها الإنسان فى أول تاريخ أمكن معرفته تشير إلى وجود الدين ، فيقول المرحوم العالم الأثرى الدكتور سليم حسن (دلت البحوث العلمية البحتة حتى الآن على أن لكل قوم من أقوام العالم عامة مهما كانت ثقافتهم منحطة ، دينا يسيرون على هديه ويخضعون لتعاليمه ، ولما كانت السلالات البشرية ، تضرب بأعراقها الى عهود قديمة قبل التاريخ فإنه يكاد يكون من المستحيل على الباحث المدقق فى أصول الديانات أن يتتبع الخطوات الأولى التى نهجها دين ما من الأديان القديمة المعروفة لنا من البداية حتى النهاية. والواقع أنه حتى الأديان الحديثة العهد نسبيا لا تكاد تميز أصولها بصورة واضحة جلية ، وما ذاك الا لأنها متصلة بالأديان القديمة التى سبقتها والتى خيمت على أصولها الأجيال العدة التى مرت عليها فأصبحت مغمورة لا يعرف لها كنه ومن ثم لم تصل إلينا إلا عن طريق الروايات التى حرفت تحريفا كبيراً حتى أصبحت فى نظر الباحثين من الأساطير التى لا يعتمد عليها علميا . ومن أجل ذلك كله أصبح من المستحيل تتبع

منابع أصول أى دين قديم لأى أمة مهما عظم شأنها ومهما بلغت حضارتها من الرقى . وعلينا إذن أن لا نطمع يوما ما فى أن نضع تاريخا محددا تحديداً علميا لدين أية أمة من الأمم بل الواجب فى هذه الحالة أن نعتمد فى بادئ الأمر على ماوصل الينا من الأساطير المتوارثة والروايات المتتابعة لأنها مهما كان أمرها تحتوى على النواة الحقيقية التى كساها تعاقب الأزمان ثوبا فضفاضا من الخيال والخصب ، ويضاف إلى تلك الأساطير الروايات والأحداث التاريخية الثابتة التى وقعت فى تاريخ هذا الدين وعملت على تطوره لأسباب سياسية أو اجتماعية)

إن الإنسان منذ أمكن للتاريخ أن يعرف عنه شيئاً وهو متدين يتبع طقوساً ويتمسك بعقائد وكلها تهدف إلى عبادة الله الواحد والإيمان به ... وأياً كان مكان هذا الإنسان نجد الإيمان والدين منذ فجر التاريخ . . فى الهند مثلا نجد الأسفار المعروفة بالكتب الفيدية ونقرأ فيها (إن الإله الأكبر قد خلق الأرض بكلمة ساحرة فأمرها بأن توجد فبرزت على الفور إلى حيز الوجود) إيمان وتوحيد . . . وفى الصين واليابان نجد نصاً يقول (إن إله السماء هو الذى يصرف الأكوان ويدبر أمور الإنسان) وفى الفرس نجد أن عقيدتهم الاعتراف بالله ووصفوه بقولهم (هو أسمى الذى يتجلى فى أرواح عليين ، فهو أقوى القوى فى عالم الملكوت) وأما أسماؤه فهى (واهب الانعام المكين .

الكامل . القدس . الشريف . الحكمة . الحكيم . الخبرة . الخبير . الغنى . المغنى . السيد . المنعم . الطيب . القهار . محق الحق . البصر . الشافى . الخلاق . العليم بكل شىء) .

وعند الفراعنة نجد الإيمان بالله والتدين ، وتعتبر قصيدة إخناتون دعاء وضراعة ومديحاً وتصوفاً وما زالت حتى الآن تثير فى النفس أعمق شعور الإيمان والتوحيد فمنها :

أيها الإله الأوحد الذى ليس لغيره سلطان كسلطانه
يا خالق الجرثومة فى المرأة
ويا صانع النطفة فى الرجل
ويا واهب الحياة للابن فى جسم أمه
ويا من يهدئه فلا يبكى
ويامن يغذيه حتى وهو فى الرحم
يا واهب الأنفاس يا من ينعش كل من يصنعه
وحين يخرج من الجسم . . . فى يوم مولده
تفتح أنت فاهه لينطق
وتمده بحاجاته
والفرخ حين يزقزق فى البيضة

تهبه النفس فيها لتحفظ له حياته
فإذا ما وصلت به
إلى النقطة التي عندها تتكسر البيضة
خرج من البيضة
ليغرد بكل ما فيه من قوة
ويمشي على قدميه
ساعة يخرج منها
ألا ما أكثر أعمالك
الخافية علينا
أيها الإله الأوحد الذى ليس لغيره سلطان كسلطانه
يا من خلقت الأرض كما يهوى قلبك
حين كنت وحيداً
إن الناس والأنعام كبيرها وصغيرها
وكل ما على الأرض من دابة
وكل ما يمشي على قدمين
وكل ما هو فى العلا
ويطير بجناحين
والبلاد الأجنبية من سوريا إلى كوش

وأرض مصر
انك تضع كل إنسان فى موضعه
وتمدهم بحاجاتهم
أنت موجد النيل فى العالم السفلى
وأنت تأتى به كما تحب
لتحفظ حياة الناس
ألا ما أعظم تدبيرك
يارب الأبدية . . .

وتفيض الصلوات والأدعية بالإيمان بالله الواحد ، ولقد تعددت المناطق التى وجدت على آثارها هذه البراهين كوصية الملك آنى لابنه خنسو حوتب ونصها (لا تأثم . خف الله واتق غضبه . وإذا صليت لله فمن العبث أن تجهر أو تصيح . صل بقلب مؤمن يخاطب الله فى غير إعلان يقض الله حاجتك و يستجب دعوتك) .

ولقد ضل بالإنسان التصور ، فتارة تخيل البعض أن الروح التى تودع فى الجسم إنما تغادره عند الموت لتسكن فى جسم آخر ، وبذلك نشأت فكرة حلول الروح الواحدة فى عدة أجساد متعاقبة ، فعبد الإنسان لذلك أسلافه ، إذ تخيل أن الأب الذى مات إنما هو جسد لروح سابقة

عليه وأن هــذه الروح نفسها سبقت الأب وكانت فى الجد . . وهكذا ولا بد أن الجد الأكبر كان نبياً فى وقت ما . . . وبذلك لا بد أن تعبد روحه . . وتارة أخرى يتخيل البعض أن كل ما فى الوجود من أشجار وأنهار وشمس وقمر و برق ورعد ومطر إنما هى مظاهر لقدرة الله . . ولذلك عبدوا هذه المظاهر قربى إلى الله . . بل إن البعض اتخذوا من الحيوانات وسائل للعبادة . . . بل من الأحجار التى صنعوا منها التماثيل . . . وإذا كانت هذه المظاهر والحيوانات والأصنام اتخذها الإنسان أولا قربى ليعبد عن طريقها الله . . فإنه بمرور الزمن قد وجدت أقوام تعبد هذه الأصنام أو الحيوانات أو النار أو الشمس . . بعد أن ملأت عبادتها تفكيرها . . وانصرفت بها عن عبادة الله . .

وكلما ضل قوم . . وابتعدت أفرادهم عن الهداية والصواب . . أرسل الله سبحانه وتعالى رحمة بهم من يعيدهم إلى الحق . . ومن يذكرهم بالله سبحانه جل شأنه . . فتتابعت الرســـل والأنبياء . . وتوالت الديانات . . إلى الأقوام المختلفة . . على مر الأزمان . . ولا يعرف الإنسان ولو عن طريق الحدس والتخمين عدد هؤلاء الرسل والأنبياء ولا عدد الديانات التى نزلت . . والتى كانت آخرها الديانات الثلاثة فى عصور الإنسان الحديثة بتواريخها الثابتة المعروفة . . لتتكرر الدعوة

إلى عبادة الله وحده وترك ما عداه . . شأنها فى ذلك شأن كل ديانة سبقت . .

فهذه هى اليهودية الديانة التى أنزلها الله سبحانه وتعالى على سيدنا موسى صلى الله عليه وسلم وأرسله بها إلى قوم فرعون بعد أن عبدوا فرعون نفسه الذى طغى و بغى.. تدعو القوم إلى توحيد الله والاعتراف بربو بيته . . ولذلك حرصت آيات التوارة على تأكيد هذه الدعوة ، فنرى أنه حتى فى الكتب اليهودية المتداولة حالياً تحرص الإصحاحات على بيان أن الخلق من الله ويتكرر لفظ الجلالة عند بيان أى حركة .. وعند كل قول وما ذلك إلا لتأكيد عقيدة الألوهية ووحدانية الله فى نفوس قوم فرعون . فتبدأ أسفار العهد القديم بالنص الآتى (فى البدء خلق الله السموات والأرض . وكانت الأرض خربة وخالية وعلى وجه الغمر ظلمة وروح الله يرف على وجه المياه . . وقال الله ليكن نور فكان نور . ورأى الله النور أنه حسن . وفصل الله بين النور والظلمة. ودعا الله النور نهاراً والظلمة دعاها ليلا .) وهكذا فى كل عبارة نجد اسم الله . . وقد أسند إليه كل أمر . . وحتى لا يعتقد القوم فى رسول الله ونبيه أنه أكثر من عبد من عباد الله . . فيضل بهم التصور بعد ذلك فيتخذونه إلها . . أو نصف إله . أو يعبدونه قربى . . نجد الإصحاحات تؤكد ذلك المعنى وتشير إلى أن سيدنا موسى نبى الله وكليمه

إنما هو عبد شأنه شأن غيره من العباد كما جاء فى الإصحاح الأول من سفر يشوع إذ تقول العبارات (وكان بعد موت موسى عبد الرب أن الرب كلمه يشوع بن نون خادم موسى قائلا : موسى عبدى قدمات).. وهكذا أوضحت التوراة الأمر لقوم موسى . . ثم دعتهم أيضاً إلى ما تدعو إليه الأديان السماوية من خير وعمل صالح وبر ورحمة و بعد عن الحرام . .

ولـكن لم يستمر القوم على عهدهم .. فتركوا بعد فترة تعاليم نبيهم وخالفوا رسالة الله . . وضلوا كما ضل غيرهم قبلهم .. فأرسل الله سبحانه وتعالى إليهم سيدنا عيسى صلى الله عليه وسلم يدعوهم إلى العودة إلى الله . . وأن يرجعوا إلى الفضيلة والخير وأن ينصرفوا عما أصبحوا فيه من سوء فيقول لهم (نقوا الـكأس من داخلها) ، (فليس شىء من خارج الإنسان يدنسه بل ما يخرج من الإنسان هو الذى يدنس الإنسان) ، (فليس بالخبز وحده يحيا الإنسان بل بكل كلمة من كلمات الله) . وأكد لهم وحدانية الله .. وحتى لا يضلوا .. أوضح لهم أن الله وحده هو رب السموات والأرض . . وأن سيدنا عيسى إنما هو رسول الله ونبيه ، فنجدفى الإصحاح ١١ من إنجيل متى مانصه (فى ذلك الوقت أجاب يسوع وقال أحمدك أيها الرب رب السماء والأرض لأنك

أخفيت هذه عن الحكماء والفهماء وأعلنتها للأطفال . نعم أيها الآب لأن هكذا صارت المسرة أمامك) وفى إنجيل مرقس الإصحاح العاشر نجد النص (وفيما هو خارج إلى الطريق ركض واحد وجثا له وسأله : أيها المعلم الصالح ماذا أعمل لأرث الحياة الأبدية ؟ فقال له يسوع : لماذا تدعوننى صالحاً . ليس أحد صالحاً إلا واحد وهو الله .) وفى إنجيل مرقس الإصحاح التاسع (ومن قبلنى فليس يقبلنى أنا بل الذى أرسلنى) وفى إنجيل يوحنا الإصحاح السابع نجد (تعليمى ليس لى بل للذى أرسلنى إن شاء أحد أن يعمل مشيئته يعرف التعليم هل هو من الله أم أتكلم أنا من نفسى . من يتكلم من نفسه يطلب مجد نفسه وأما من يطلب مجد الذى أرسله فهو صادق وليس فيه ظلم) وفى إنجيل يوحنا الإصحاح الثانى عشر نجد النص (فنادى يسوع وقال الذى يؤمن بى ليس يؤمن بى بل بالذى أرسلنى والذى يرانى يرى الذى أرسلنى .) . . . ولكن هل آمن القوم الذين أرسل الله لهم هذا الرسول برسالته وأتبعوا تعاليمه . . . لم يؤمن له إلا البعض . . وهؤلاء كانوا هدفاً لثورة اليهود عليهم . . . واحتمل هؤلاء الأذى . . وكلما ازدادت أتباعه . . كلما ازدادت الأحقاد من اليهود وتفننوا فى تعذيبهم لعلهم يخرجون عليه ويعودون إلى ضلالهم . . واختلف المسيحيون من بعد نبيهم وتشعبت مذاهبهم وتنافرت معتقداتهم حتى

انشقوا إلى فرق كثيرة . . وإلى مذاهب عديدة . . وكان خلافهم فيما بينهم . . وعداوة اليهود لهم . . . سبباً فى أن يسود الظلام على الأرض نخفتت أصوات الموحدين وقل من الدنيا المتدينين .

وعمت رحمة الله عباده وشملهم فضله وبره ، فأرسل للعالمين خاتم الرسل والنبيين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بآخر الأديان ... ودين الحق والسلام .. يدعو الناس جميعاً إلى خير دعوة .. إلى الإسلام .. الإسلام لله وحده إيماناً وعبادة وتسليما . ويصحح ما وصلت إليه عقائد الناس ، فيقول القرآن الكريم (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ . اللهُ الصَّمَدُ . لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفوًا أَحَد) . . إذ لا يمكن أن يتخذ الله سبحانه ولدا ،فيقول فى ذلك: القرآن الكريم (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا . لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا . تَكَادُ السَّماَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا . أَنْ دَعُوا لِلرَّحْمنِ وَلَدًا . وَمَا يَنْبَغِى لِلرَّحْمنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا . إِنْ كُلُّ مَنْ فِى السَّماَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِى الرَّحْمنِ عَبْدًا .) . وحرص الإسلام على تأكيد عقيدة الإيمان بالله الواحد الأحد ، فنجد أن اسم الله سبحانه وتعالى قد تكرر فى القرآن الكريم أكثر من ثلاثة آلاف مرة، مقررا أن الله سبحانه جل

شأنه ، ليس كمثله شيء إطلاقاً ، فى مثل الآيات (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) وأنه وحده هو الذى خلق السماوات والأرض وما بينهما بنص الآيات الشريفة مثل (الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَٰنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً) . وهو الرزاق يرزق كل ماخلقه بنص الآيات (إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيرًا)، (وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لاَ تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) أما مظاهر قدرته فكل ما فى الوجود إنما يشير إليها إذ تقول الآيات الكريمة (وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ) ، (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ) . وما من شيء فى الأرض ولا فى السماء فى العلن أو الخفاء إلا ويعلمه الله سبحانه وتعالى بنص الآيات الشريفة (قُلْ إِنْ تُخْفُوا

مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ). (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ). وأسماء الله التى أوردها القرآن الكريم تبين مدى عقيدة الألوهية عند الإسلام ووحدانيته سبحانه وتعالى مثل (هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمٰنُ الرَّحِيمُ. هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ. هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ).

هذه هى حقيقة الدين وصلة الإنسان به كما تقررها الأدلة الثابتة والبراهين المؤكدة والشواهد الناطقة ويرويها التاريخ، وكلها تؤكد أن الدين قديم قدم الإنسان، بل إن قدامى المؤرخين قد ضمنوا مؤلفاتهم ما يؤكد اعتقادهم بوجود الدين أينما كان الإنسان، مثل ما يقوله بلوتارك

المؤرخ الإغريقى الشهير منذ نحو من ألفى سنة ، ونصه (من الممكن أن نجد مدنا بلا أسوار ولا ملوك ولا ثروة ولا آداب ولا مسارح ولكن لم ير انسان قط مدينة بلا معبد أو لا يمارس أهلها عبادة) .

فياترى هل كان لإنسان ما قبل التاريخ دين ؟ . و الى أى عصر من عصور الإنسان ترجع معرفته الى الدين ؟ . . والإجابة على هذه الأسئلةلن تكون عن طريق أدلة مقروءة أو شواهد قائمة أو آثار ثابتة فإن معرفة أحوال الإنسان فى عصور ما قبل التاريخ إنما تعتمد على المنطق والعقل والاستنتاج والمقارنة والربط . .

إن منشأ الدين عند الإنسان يرجع إلى اللحظة التى أخذ يفكر فيها فى نفسه . . ويتساءل : ترى من أنا ؟ . . ولماذا أنا هنا ؟ . . ومن أين جئت ؟..وإلى أين أذهب ؟.. وهذه الأشجارالتى لم أصنعها .. وهذه الأنهار التى لم أجرها . ؟ . وهذه الرمال التى لم أوجدها ؟ . . كيف وجدت إذاً ؟ . . بل هذه الشمس وهذا القمر ؟ . . هذه السماء وهذا الحشد من النجوم ؟ . من أنشأها ؟ . . وكيف كانت ؟ . . وكيف ستصير ؟ . . وبديهى أنه لا إجابة على وجه الإطلاق على هذه الأسئلة إلا أن هنالك خالقاً لكل ما فى الكون . . فياترى متى فكر الإنسان فى ذلك ؟ . . قطعاً فى أول لحظة رأى الإنسان فيها نفسه ورأى كل ما حوله . . .

وعندما أحس الإنسان لأول مرة بالبرد أو الحر.. أولفحته الشمس أو خشي الليل لجأ إلى غار أو كهف .. فمن يا ترى ألهمه هذه الفكرة؟. بديهي أنه لم ير غيره فتعلم منه أو ينقل عنه أو يقلد عمله .. وكذلك عندما رأى عدواً له في شكل حيوان أو طائر أو ثعبان .. احتمى بشجرة .. أو دافع عن نفسه بحجر أو عصا فمن أوحى إليه بعمل ذلك ؟ .. وعندما شعر بالجوع لأول مرة .. من ألهمه أن يتناول أصناف النبات ولم يأكل طين الأرض مثلا .. أو لم يأخذ ذراعه فيأكلها ؟ .. بل من ألهمه أن يأكل أصنافاً بعينها تفيده وتغذية .. ويترك غيرها التي تصيبه وتفنيه ؟ ..

ورأى الإنسان غيره قد مات .. فسأل نفسه ترى من الذي يبقيني حيا فلم أمت كغيري ؟ .. وكم سأعيش قبل أن أموت مثل من مات ؟ .. بل لماذا نموت ؟ .. وإلى أين نذهب بالموت ؟ .. وقطعاً لا إجابة على هذا إلا أن الذي خلق الإنسان قدر مدة حياته ... ثم كتب عليه الموت .. ليذهب إلى حيث شاء خالقه ..

إن هـذه الأحاسيس والغريزة الفطرية وما يشعر به الإنسان من إلهام مصدره خارج الإنسان لهي سبل وصول الإنسان الى معرفة خالقه والتمسك بعبادته .. كما أن حاجة الإنسـان إلى الإيمـان بوجود قوى

خارجية يفزع إليها عند حاجته . . لتنصره إذا بغى عليه وترد إليه حقه إذا سلب منه . . يتضرع إليها إذا أصابه الداء . . ويشكرها إذا نال الشفاء . . ولا بد أنه فى تصوره لهذه القوى إنما يتخيل أنها أكبر مما يستطيع أن يسعفه به التخيل . . فهى أكبر من كل ظروفه لأنه يلجأ إليها . . وأكبر من كل ما فى الحياة لأنها هى الله تهب له حياته وحياة الآخرين . . وهى أقوى من كل ما عرف ومالم يعرف من القوى لأن كل قوة أحسها أو عرفها . . كثيراً ما وجد أكبر منها . . فالدين بذلك فطرى فى الإنسان أودعه الله سبحانه وتعالى فيه منذ أن خلقه .

ولقد قرر الفلاسفة والبحاث أن الإنسان يؤمن بربه . . ويعرفه . . إيماناً فطرياً ومعرفة غريزية . . ولو لم تصله أية رسالة تهديه فيقول الفيلسوف اليونانى الكبير سقراط (يشعر الإنسان بحاجته الماسة إلى الهواء والماء والطعام وكذلك تشعر روحه أنها فى حاجة مبرمة أيضاً إلى غذاء روحى . . وهذا الشعور هو فى عرفنا الدين الذى اهتدى اليه أول إنسان . يدلك على ذلك أننا إذا تتبعنا حياة طفل أتينا به من أقاصى البلاد المتوحشة وتركناه يترعرع بدون أن نلقنه عقيدة دينية مهما كان نوعها فإنك لتجده عندما يصبح رجلاً كامل الشعور يتحرى فى أعماق تفكيره عن شىء مجهول ويظل باحثاً منقباً تحت تأثير عامل نفسى وغريزى حتى يعثر على بادرة تكون فى أول أمرها مائعة اللون تتمركز

فى دماغه ثم لا تلبث حتى تتجسم وتتخذ شكلا صوفياً بارزاً يأخذ فى التطور رويداً رويداً إلى الشىء الذى نسميه عقيدة أودينا ، لأن هنالك ضرورة خفية وقوية تدفعه إلى هذا التدرج حتى يصل إلى النوع الذى يحاوله للعبادة) . .

ولقد درس أبو بكر محمد بن طفيل فى القرن الخامس الهجرى . . الأديان وكيف نشأت فوصل إلى هذا الرأى أيضاً الذى أخرجه فى قصة أسماها (حى بن يقظان) أو (أسرار الفلسفة الإشراقية) ولقد بلغ من تقدير العلماء لها أن ترجمت إلى اللغة اللاتينية ، وفى وقت لم يكن يترجم إلى هذه اللغة إلا المراجع العلمية الكبيرة التى لها أكبر الأثر على نشر العلوم العامة فى مختلف بقاع الأرض .

هذه القصة تتلخص فى أن طفلا وجد بلا أب أو أم فى جزيرة نائية ، هذا الطفل هو (حى بن يقظان) . و لقد تبنته غزالة فأرضعته من لبنها حتى شب وأمكنه أن يقوم بحاجات نفسه وما أن قارب سبعة أعوام حتى وجد أنه يخالف باقى الحيوانات . . فإن جسمها إما مغطى بشعر كثيف أو ريش أو صوف .. أما هو فلا يستره شىء .. فعمد إلى أوراق الشجر يستر بها نفسه . . وكان كلما ذبلت وجفت استعاض عنها بأخرى . . حتى تمكن وحده من استعمال جلود الحيوانات التى

تموت . . وبديهى أنه لم يكن يقلد فى ذلك غيره . . فهو وحيد فى مكانه .. ولم يكن يتعلم من أمه . فهى حيوان تختلف عنه فى كل شىء . . وما أن ماتت الغزالة حتى حزن وبكى .. وأخذ يفحص جسدها ليعرف سر الحياة فيها — وذات يوم اندلعت النار فى الجزيرة . . فشعر أنها تضىء له مكانه . . وتبعث فيه الدفء وأن ما أصاب الحيوان والطيور منها جعلها أصح للأكل وبذلك تمكن من استعمال حواسه . . واستخدام ما حوله . .

ورأى أن جميع ما حوله . . وما يشاهده يخضع لقانون واحد . . هو الكون والفساد . . أى الوجود والفناء . . فلا بد من خالق أوجد هذا الوجود . . وكتب عليه كل ما يجرى فيه . ووجد أن الأشياء الموجودة المختلفة كلها متشابهة فى الأصول وفى التكوين ولا بد لذلك أن تكون صادرة عن فاعل واحد فآمن بالخالق . . الله الواحد . . ثم امتد ببصره عبر الفضاء فرأى الشمس التى تشرق ثم تغرب ثم تعود مرة أخرى فى نظام بديع . . وهذه النجوم . . والرياح والأمطار .. إنما هى كلها صور تنطق بالعظمة والجمال .. واللطف والدقة والعلم والخبرة فعلم أن كل هذه إنما هى صور تشير إلى قدرة الله وعظمته وجلاله . . وحكمته . . . وما أن بلغ حى بن يقظان خمسة وثلاثين عاما من عمره

حتى كان قد عرف العقل وعرف النفس وعرف الروح . . وعاش يتعبد . . ووهو يؤمن بواجب الوجود . . الله الموجود . .

وهكذ تدل كافة الأبحاث وتؤكد الدراسات أن الدين بدأ ببداية الإنسان وأننا إذا رجعنا إلى الوراء وجدنا الإنسان الأول وقد آمن بالله إيماناً كاملا . . . إذ قد تلقى منه سبحانه وتعالى الالهام .. ورأى الآيات . . أما كيف تلقى هذا الإلهام . . وعلى أى صورة رأى آيات الله .. فهذا ما لا سبيل إلى معرفته . . أو الظن فيه . .

وإذا كانت الدراسات على اختلاف وسائلها قد أثبتت أن العلم بدأ ببداية الإنسان كما بدأ الدين كذلك فإن القرآن الكريم يقرر هذه الحقيقة فى آيات خلق الله لآدم إذ خلقه الله وعلمه كل شىء وكما تلقى آدم من ربه العلم تلقى الدين بما أمره الله به ونهاه عنه وكما تلقى كلمات التوبة كذلك إذ تقول الآيات الشريفة :

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّى أَعْلَمُ مَالاَ تَعْلَمُونَ . وَعَلَّمَ آدَمَ

الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ
هٰؤُلاَءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ
مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ . قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُمْ
بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ
غَيْبَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ
تَكْتُمُونَ . وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا
إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ . وَقُلْنَا
يَا آدَمُ أُسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ
شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ . فَأَزَلَّهُمَا
الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ
لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ . فَتَلَقَّى
آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ).

وهكذا لم يعد الأمر فى حاجة إلى دليل . .

بعد أن اتفقت الدراسات والأبحاث مع ما جاءت به آيات القرآن الكريم .

على أن العلم بدأ مع الدين . . ومع بداية الإنسان .

فياترى هل يتعارضان بعد ذلك و يتناقضان ؟ . .

أم ترى لابد يتفقان ؟ . .

أهداف العلم ..
وأهداف الدين ..

كان المعتقد سابقاً أن أهداف العلم لا تلتقى وأهداف الدين إذ أن العلم يسلك سبيل الحس والمشاهدة وأنه يعنى فقط بالحقيقة الموضوعية ويقوم أساساً على التجريب المادى بينما الدين يسلك سبيل التسليم بالمقدمات وأنه يعنى فقط بالحقيقة التى تصل إلى الناس عن طريق الرسل الذين أرسلهم الله سبحانه وتعالى ، ولذلك فلا يمكن أن يكون موضوع التجريب المادى ، كما أن سبيله ليس سبيل العلم من حيث الحس والمشاهدة بل سبيله التسليم والتصديق . . ولكن إذا كان العلم فى كل ميادينه إنما يهدف أساساً إلى سعادة الإنسان أفلا يتفق فى ذلك مع الدين إذ أن الدين لا يهدف إلا إلى سعادة الإنسان .

فالعلم من أول أهدافه بل هدفه الأساسى توفير الحياة الكريمة السليمة السعيدة للإنسان . فمنذ أن كان علم الإنسان فى ميدان الزراعة لا يزيد على إلقاء الحب على الأرض وتركه تحت مختلف الظروف الطبيعية من مطر أو رياح وشمس وظل ، وانتظار نتيجة هذا العمل التى تتوقف على ظروف لا دخل للإنسان فيها إلى أن أصبحت الزراعة ولها أصول وفنون بل وتنتظمها علوم كثيرة متشعبة لها جامعات وكليات فى كل دول العالم وأصبح علم الزراعة لا يعنى فقط بإلقاء البذور وانتظار النتيجة التى تتدخل فيها عوامل كثيرة متباينة لا يستطيع الإنسان أن

يسيطر عليها بل أصبحت الزراعة تعنى محاولات علمية لزيادة الرقعة الزراعية فى العالم وزيادة معدل الإنتاج فى كل وحدة إنتاجية واستنباط وسائل جديدة لزيادة هذا الإنتاج عن طرق كثيرة ، منها توفير سبل الرى، وتحسين الصرف وتهجين النبات ، وتحسين التقاوى وغير ذلك ، وأصبح من علوم الزراعة علم النبات الذى يبحث فى كل ما يحسن النبات ، بل يتناول تشريحه ودراسته وتقسيم أنواعه و بيان أصنافه، وعلم الكيمياء بمختلف فروعها عضوية ، وغير عضوية ، وكيمياء التربة ، وعلم المحاصيل ، والزهور أو الزينة ، والفاكهة وغير ذلك من عشرات العلوم التى لا تخص النبات وحده ، بل تتصل بكل ما يؤثر عليه أو يتصل به كالاقتصاد والمساحة الزراعية وغيرهما كثير . . نجد أن الهدف واحد منذ كانت الزراعة مجرد إلقاء البذرة إلى أن تطور علم الزراعة وما زال يتطور ويتقدم . . الهدف توفير الغذاء بالكميات اللازمة للإنسان ، وبالصورة الملائمة المناسبة لمختلف الأذواق ، و بأقل تكاليف ، وأوفر جهد ، وأسرع وقت ، وأجمل شكل ، وأكمل مذاق .

ثم إذا ما توافرت للإنسان — أينما كان ، وفى أى ظرف كان — وسائل معيشته ومقومات حياته من الغذاء فإن العلم يهتم بصحة هذا الإنسان منذ أن كان هذا العلم لا يزيد على التجاء الإنسان إلى الكهف.

أو المغارة ليحتمى فيها من غوائل الطبيعة القاسية التى تتمثل فى البرد القارس ، أو الحر اللافح ، أو المطر الشديد ، أو الشمس المحرقة ، وكذلك محاولات العلاج الأولية التى لابد أن الإنسان فى أطواره الأولى وأزمنته السابقة لجأ إليها عن طريق الوحى أو الإلهام ؛ فلابد أن الإنسان الأول لجأ إلى المكان الدافىء حين أحس بالبرد كما كان يبتعد عنه إلى المكان الظليل البارد ، الطلق الهواء ، القريب من الماء ، إذا أصابته الحمى ؛ ويكون فى ذلك لا يزيد على الطيور والحيوانات التى تفعل ذلك ، كما أنه لا بد قد تعلم من الذئب أن يمضغ جذور اللوف العطرى إذا لدغته الحية ، أو يستجيب لنداء باطنه إذا أكل غذاء فاسداً أو ساماً بأن يلفظه خارج معدته . . وكلما زاد تقدم الإنسان واتسعت آفاق معرفته كلما زادت وسائل محافظته على نفسه ، وتشعبت نواحيها ، فنجد حالياً علم الطب الوقائى الذى يبحث أساساً فى طرق وقاية الإنسان من كل الأمراض وأى الأمراض ، وعلم الطب العلاجى الذى يبحث فى طرق علاج كل مرض ووسائله ، والطب الاجتماعى الذى يبحث فى علاقة المرض ومسبباته بالبيئة والمجتمع ، وتحت كل علم من هذه العلوم تتجمع أفرع من العلوم كثيرة ، منها ما يبحث فى وظائف الأعضاء ، وغيرها يبحث فى تشريح جسم الإنسان . . وكل عضو من الأعضاء له دراساته الخاصة ، وتشريحه وأمراضه وعلاجه ، وتاريخ المرض ،

وتاريخ كل ما اتخذ من وسائل العلاج ؛ بل يدرس الطب الآن ضمن علومه علم الأجنة الذى يقف على تطورات خلق الجنين داخل الرحم وتصويره ومتابعته وهذه العلوم المتعددة إنما تهدف إلى توفير الحياة السليمة الصحيحة للإنسان ودفع أى مرض يصيبه بأسرع وقت وأيسر طريق .

و بدأ الاقتصاد منذ حاول الإنسان الأول أن يدخر بعض مواده التى يستعملها لحين حاجته إليها ، ثم حاول أن يستبدل ما يزيد عن حاجته منها بما يقل عنده من غيرها ، ثم تطور هذا العلم إلى أن أصبح يضم فروعاً كثيرة من العلوم والمواد ، كلها تهدف إلى زيادة موارد الإنسان الاقتصادية وتوفير حاجاته بأقل تكلفة وتحقيق الحياة الرغدة السعيدة للإنسان بتوفير كافة الوسائل الكفيلة بإسعاده ، ولا يقتصر علم الاقتصاد كما قد يظن على التجارة ودراسة النفقات ووسائل النقل والتبادل فقط ، إنما تمتد دراساته وتتشعب أبحاثه ، فتصل إلى دراسة البلاد المختلفة من كل نواحيها الجغرافية والتاريخية والسياسية واحتياجاتها ، وما يزيد عن حاجاتها ، والمحاسبة وطرقها ، وغير ذلك مما يحقق الهدف من علوم الاقتصاد ، مثل مختلف علوم الرياضة التى تفيد الإنسان فى حل مشكلاته الحسابية فى سهولة و يسر .

وفى ميدان الهندسة حاول الإنسان الأول أن يتخذ الإجراءات

التى تجعل إقامته فى كهفه أو مغارته أمراً مرغوباً فيه وسهلا وميسراً ، لعله وضع فى فتحة الكهف حجراً كان هو الأصل فى اختراع الباب ، وربما حفر فتحات فى أى حائط ليرى منها الخارج ، أو يدخل منها الهواء والشمس . فكانت أساس النوافذ ، وقد يكون مهد الطريق من كهفه إلى مكان صيده ويكون ذلك أول تفكير فى إنشاء الطرق ، ومن الجائز أن يكون ذلك قد تأخر الى جيل لاحق على الإنسان الأول ، إلا أن هذا العمل قد تطور تطوراً كبيراً وسريعاً الى ما نراه الآن من اقامة المساكن الصحية ، والعمارات الشاهقة ، وهذه الميادين الواسعة ، والطرق المتشابكة ، وما اخترعه الإنسان من وسائل تحقيق رفاهيته ، وتحسين محال اقامته ، كأجهزة تكييف الهواء ومركبات النقل السريعة المريحة ، وغيرها من مختلف أسباب السعادة ، وأصبح لكل فرع منها العلوم العديدة التى تختص بدراستها ، وادخال التحسينات عليها .

وفى ميدان التشريع ، نجد القوانين واللوائح التى بدأها الإنسان منذ القدم ، بل منذ قرر آدم عليه السلام أن يزوج ذكر كل بطن بأنثى الآخر من ذريته ، وكلما زادات معاملات الناس بعضهم ببعض بزيادة الأفراد كلما دعت الحاجة الى مزيد من القوانين لإقرار مبادئ العدل والإنصاف ، ومحافظة على الإنسان من شرور الجرائم أياً كانت

أنواعها وأشكالها ، والدافع لها ، فكل ما يصدر فى ميدان التشريع إنما لحماية الإنسان ، وتنظيم أسرته ، وقيام المجتمع الصالح الذى تتعاون أفراده ، وتتحاب جماعاته ، وتتجاوب طبقاته ، كل ذلك إنما يهدف لخير الإنسان وتوفير حياة كريمة سعيدة مستقرة .

ويضع العلم أساس قيام الدولة ، ويقرر حقوق الأفراد ، وواجباتهم قبل بعضهم وقبل الدولة ، ويبين أن الدولة أو الجماعة السياسية إنما يقصد بها خير الأفراد الذين تضمهم هذه الجماعة ، أو الدولة ، إذ يقول أرسطوطاليس العالم والفيلسوف المشهور فى أول كتابه عن السياسة ما نصه : (إذا كانت كل جماعة من الجماعات إنما يقصد بها قسط من الخير ، فإن الدولة أو الجماعة السياسية ، وهى التى تنتظم فيها الجماعات كلها هى أرفعها جميعا ، ولذلك كان الخير الذى يقصد بها أعظم درجة من أى خير آخر فهو أعلى مراتب الخير) . ومنذ أن تولى آدم شئون أول أسرة فى الأرض ، وأراد ابنه هابيل أن يتزوج بأخت قابيل ، وكان هذا أكبر من هابيل ، وأخت قابيل أحسن ، وذلك استجابة لأمر أبيهم ، إلا أن قابيل أراد أن يستأثر بها على أخيه ، ويعصى أمر أبيه ، فأمرهما آدم أن يقربا قربانا ، فمن قبل قربانه فقد فاز ، فقرب هابيل جذعة سمينة إذ كان صاحب غنم ، وقرب قابيل حزمة من ناتج زرعه من

أردأ ما أخرجت أرضه فنزلت نار فأكلت قربان هابيل ، وتركت قربان قابيل ، فغضب وقتل أخيه . فكان لابد من وضع التشريعات والأوامر التي تحول بين الإنسان وقتل أخيه إذا ما غضب ، وكثيرا ما تجد في أمور الحياة ما يجعل الإنسان يغضب منذ ذلك الحين حتى الآن ، وفي كل مناسبة يضاف جديد إلى القوانين ، أو تعدل المواد في القوانين ، وكل هذا انما يهدف إلى حفظ حياة الإنسان وحقه أيا كان هذا الحق . . ومهما كان هذا الحق ، وأينما كان هذا الحق .

وهذا الشمول في صيانة الحقوق والواجبات جعل العلم لا يقتصر في دعوته إلى الحق عن طريق القانون والتشريع . . إذ أن العلم يهتم أساساً بتربية نفس الإنسان ، وتنمية روحه ، وغرس الفضائل في أخلاقه ، فمن المعروف الذي لا يحتاج إلى دليل ، أن طالب العلم هو طالب حقيقة ، وكما يقول الفيلسوف أرسطوطاليس : (من طلب الحقيقة ، أحب الحق ، ومن أحب الحق كان صادقاً ، ومن كان صادقاً كان شجاعاً ، ومن كان شجاعاً كان ذا مروءة ، ومن كان ذا مروءة كان كريماً ، ومن كان كريماً كان رحيما ، وأحب الخير ، ونصر العدل ، وأمر بالمعروف ، ونهى عن المنكر) وليس أفضل من الدعوة إلى مكارم الأخلاق وهي ما يهدف إليها العلم .

ومن أهم أهداف العلم تنمية العقل ، وهو وسـيلة السعادة عند الإنسان إذ يقول أرسطوطاليس : « إن أعلى مراتب السعادة الإنسانية هى السعادة التى تنشأ عن الحياة العقلية ، لأن العقل هو الذى يميز الإنسان على غيره من الكائنات ، وسعادة كل كائن إنما تقوم على ماتتميز به طبيعته » . والسعادة كما يقرر العلماء والفلاسفة ، ليست فيما قد يتبادر إلى الذهن لأول وهلة من تمتع مادى أو لذة تقوم على شهوة أو شهية ، فإن هذا من صفات الحيوان ، أماسعادة الإنسان فهى بإحساسه بالخير .. والخير يبذله لغيره . . والخير يبذله غيره له . . واطمئنانه على أنه يعيش مع غيره لأنه يحبه .. وغيره يعيش معه على حبه ... وإيمانه بأنه يؤمن بالله الواحد الأوحد ، إيماناً خالصاً كاملا عميقاً ، وأن كل ما فى الوجود إنما منه ، وإليه ، ولا يقع فى ملـكه . . إلا ما يشاء ! . ولا يتم من أمر إلا ما أراد . ! إن أصاب الإنسان الخير . . أطمأن به . . وحمد وشكر وآمن أنه عن قريب سيترك ما أصابه .. وسيلقى عند الله ثواب ما شكر .. وإن أصاب الإنسان الشر .. صبر عليه .. وحمد وشكر واطمأن أنه لابد سيزول عنه ما ناله . . وسيجد عند الله أجر ماصبر . . وإن كان العلم قد استحدث أخيراً ميادين جديدة لأبحاث ما وراء الطبيعة ، والتى تهدف ـ أساساً ـ إلى دراسة ما وراء الموت ومابعده ، ومعرفة الجانب الأسمى فى الإنسان ، وهو الجانب الروحى الذى هو أساس الإنسان ، ومحور

حياته فى الدنيا وما بعد الدنيا ، وإن كانت هذه الأبحاث قد أكدت بالأدلة القاطعة ، والبراهين الساطعة على أن الإنسان يتكون من جسد من تراب وإلى تراب يعود . . ومن روح هى قبس من الله ويستحيل على هذا القبس من النور الإلهى أن يعدم أو يفنى ... إنما هو ينتقل من حال إلى أخرى . . ومن حياة بلون معين إلى أخرى ذات طابع محدد . . إلى أن يشاء الله فيتم من أمره ما أراد . . ولا يعلم الإنسان إطلاقاً . . ما سوف يكون .. فهذا أمر الله وحده يعلمه إذ قرره .. سبحانه . .
ولئن كانت هذه الدراسات أخذت مكانها من حيث إنها فروع لعلوم أصبحت الآن تدرس فى الجامعات المختلفة ، وإن كانت هذه الدراسات تشير فى أولها ، وتؤكد بأجمعها وجود الله سبحانه وتعالى ، فإن كافة العلوم على وجه الإطلاق بعد أن اتسعت آفاق أبحاثها قد وصلت إلى حقائق فى دراساتها كلها كأنها تسابيح لله سبحانه وتعالى بألفاظ جديدة، وأنغام فريدة ، وأصبح العلماء وهم يرقبون الفلك بمناظيرهم يهتفون ويهللون ويكبرون ، وأصبح الأطباء يبحثون جسم الإنسان .. فإذا بهم يعترفون أن كل عضو من هذا الجسد ؛ بل كل خلية من خلاياه ، إنما وكأنها تسبيحة لله العظيم . . ! بل هؤلاء علماء الذرة الذين يبحثون المادة التى كانت تعتبر جامدة ميتة اذا بهم يكتشفون أن الذرة إنما هى اهتزاز وحركة ، وأن الكهارب فيها فى حركة طوافه ، وتأكدوا أن

حركة البروتونات داخل نواة الذرة إنما هي حركة لولبية قيام وسجود.. لأنها أقرب ما تكون إلى مركز الوجود . . وإن حركة الإلكترونات خارج النواة ، انما هي حركة سبحية طوافة .. وأن هذا السبح والطواف يشمل الوجود بأجمعه .. إذ تسبح الكواكب والنجوم . . والمجموعات والأفلاك .. كلها تشملها حركة واحدة .. السبح والطواف .. لقد صدق هرشل العالم والفيلسوف حينما قال حكمته الخالدة في القرن الثامن عشر ونصها (كلما اتسع نطاق العلوم كثرت الأدلة على وجود حكمة خالقة قادرة مطلقة ، وما العلماء الطبيعيون ، والكيماويون ، وعلماء الفلك ، الا بناة لمعاهد العلوم التي يسبح فيها للخالق العظيم .) بل إن أينشتين أعلم علماء الأرض في زمانه ، والذي اشتهر بالرياضة ، وقد كان البعض يرى أن الرياضة البحتة بعيدة عن الروحانيات إذ أنها لا تمت إليها بأي سبب ، يقول هذا العالم بعد أن وصل إلى درجة من العلم تعتبر قمة في نوعها : « إن أعظم جائشة من جائشات النفس وأجملها ، تلك التي تستشعرها النفس عند الوقوف في روعة أمام هذا الخفاء الكوني ، إن الذي لا تجيش نفسه لهذا ، ولا تتحرك عاطفته ، هو حي كميت ، إنه خفاء لا تستطيع أن تشق حجبه وظلام لا تستطيع أن تطلع فجره ، ومع هذا فتدرك أن وراءه شيئاً هو الحكمة أحكم ما تكون ، وتحس أن وراءه شيئاً هو الجمال أجمل ما يكون ، وهي حكمة وهو جمال

لا تستطيع أن تدركها عقولنا القاصرة إلا فى صور لهما بدائية وأولية ، وهذا الإدراك للحكمة ، وهذا الإحساس بالجمال فى روعته ؛ هو جوهر التعبد عند الخلائق) . . . هــذه هى السعادة العقلية التى يهدف إليها العلم .. فهل هناك سعادة قدر تلك السعادة التى يحسها الإنسان منا عندما يعلم أن الله سبحانه وتعالى الذى تتجلى بعض مظاهر قدرته فى خلقه هذه الأفلاك والأكوان ، وتظهر بعض حكمته فى هذه الروابط والنظم التى تحكم هذا الوجود ، وتتضح بعض رحمته فيما يشمل به كل ماخلقه من مختلف نواحيه ، وإننا وقد خلقنا القادر الرحيم .. والجبار العظيم .. فنحن موضع ذكره .. وحياتنا هى أثر رحمته .. ووجودنا دليل محبته .. فما أسعدنا بذلك .. وأى سعادة أكثر من ذلك ؟ .

وهكذا يهدف العلم فى كل قطاعاته ، ومختلف ميادينه إلى خير الفرد ، وصالح المجتمع ، وسعادة البشرية ، بأجمعها .. فهل تهدف الأديان إلا إلى ذلك ؟ .

إن أول مادعت إليه الرسل كافة هو الإيمان بالله وحده، وعبادته ، وهذا هو أصل الأديان ، فإن أساس الدين — أى دين وكل دين — هو الإيمان بالله وعبادته ، وبهذا نادت الرسل والأنبياء فى مختلف العصور بنص الآيات الشريفة : ـ

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَاقَوْمِ اُعْبُدُوا اللَّهَ)

[٢٣ سورة المؤمنون]

(وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ)

[١٦ سورة العنكبوت]

(وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اُعْبُدُوا اللَّهَ)

[٦٥ سورة الأعراف]

(وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اُعْبُدُوا اللَّهَ)

[٧٣ سورة الأعراف]

(وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اُعْبُدُوا اللَّهَ)

[٨٥ سورة الأعراف]

(وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اُعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ)

[٧٢ سورة المائدة]

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ)

[٢٥ سورة الأنبياء]

بل وتنص آية فى القرآن على أن العبادة هى أساس الخلقة الإنسانية كلها :

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ)

[٥٦ سورة الذاريات]

فهل فكر الإنسان منا كيف تكون حالة العالم لو انتشر الإلحاد وساد ؟ . إن الفيلسوف اليونانى تميستوقلوس يقول : (إن أعجب مافى هذا الكون وجود نظام عام وضع نفسه بنفسه ، وتواضع الناس على احترامه والرضوخ اليه ، ألا وهو تركيز الحياة العامة على قواعد هى أقرب إلى العدالة منها إلى الفوضى ، ولولا هذا القانون الطبيعى لساد المجتمع البشرى الهرج والمرج ، وراج الذبح والقتل والنهب والتخريب ، يعمل كل فى ناحية ، وتعيش الناس فى حياة توحشية فظيعة .) . . إن أى إنسان حرم مقومات الأخلاق لينشر فى الأرض الفساد ، ويصبح وهو الفرد الأعزل قوة هدامة مخربة ، تتجمع الجموع وتحشد القوى لمحاربته ، فما بالنا لو أن مجتمعا بأثره حرم الأخلاق . . وياترى هل كانت تدوم الحياة لو أن أهل الأرض كانوا ملاحدة لايردعهم دين ، ولا يمنعهم عن الشر إيمان ؟ . . إن علماء الاجتماع قد وصلوا إلى حقائق عن طريق أبحاثهم ودراساتهم ، وقرروا أن الإلحاد كارثة تصاب بها بعض الامم الضالة ، أو الأفراد غير الكاملى الإدراك الداخلى ، وأن الإلحاد حيث يتفرع يؤدى إلى اضمحلال الأخلاق وفقدان الحرية ، وانهيار الحياة الاجتماعية من الوجهتين الخاصة والعامة ، وحجب مقومات السعادة عن الأفراد والجماعات.

والإيمان بالله قد أثبتت الدراسات التربوية ، والأبحاث النفسية أنه يحقق للإنسان ما لايستطيعه غيره ، فهو وقاية وعلاج من كافة الأمراض النفسية ، والاضطرابات العصبية ، والعلل الجسمية التى تنشأ من عوامل القلق والتوتر العصبى والخوف ، وقد أثبتت الدراسات الطبية أن من أهم أسباب الأمراض العضوية الحالة العامة للانسان والتى يسيطر عليها الجهاز العصبى ، والحالة النفسية للإنسان ؛ وقد أصبحت حقيقة العلاج النفسى عن طريق الإيمان بالله من وسائل الطب ، فنجد أن علماء النفس وأطباءها قد تضمنت أقوالهم هذه الحكم بلا لبس أو غموض ، فمثلا يقول وليم جيمس أستاذ الفاسفة بجامعة هارفارد ومن علماء النفس : (إن أعظم علاج للقلق ولاشك هو الإيمان) ويقول الدكتور بريل من كبار علماء النفس : (إن المرء المتدين حقا لايعانى قط مرضا نفسيا) ويقول ديل كارنيجى اخصائى النفس المعروف: (إن أطباء النفس يدركون أن الإيمان القوى ، والاستمساك بالدين كفيلان بأن يقهرا القلق ، والتوتر العصبى ، وأن يشفيا هذه الأمراض) . وهذا يقرره كل علماء النفس فى كل مكان .

والإيمان بالله يسبغ على نفس المؤمن الاطمئنان إلى رزقه ، فلا يطغيه إذا زاد ولا يشقيه إذا نقص ، ولذلك فإن المؤمن بالله نجده لا يطمع

فى حق غيره ، ولا يحقد على من وسع الله عليه رزقه ، ولا يحسد من وهبه الله أكثر مما أعطاه ، وعلاوة على أن ذلك يضفى على النفس سكينة وطمأنينة ، فإنه سبيل إشاعة العدالة والحق والمحبة بين أفراد المجتمع بل كل المجتمعات فى أنحاء العالم .

والإيمان بالله يحول بين الإنسان وبين ارتكاب أية معصية ، أو اقتراف أى ذنب ، والمعصية أو الذنب إنما ينتج عنها الضرر مهما كان قدر هذا الضرر ، ولو لم يتعد الانسان نفسه فهو إضرار بالنفس ، وبالتالى إضرار بالمجتمع إذ أن كل إنسان انما هو عضو فى مجتمعه وأى عطل يصيب هذا العضو أو يفسده انما لابد سيصيب المجموع من أثره شىء . . ان المؤمن بالله لا يقتل . . ولا يسرق . . ولا يزنى . . ولا يكذب . . ولا يغش . . ولا يخادع . . ولا يأتى بأى موبقة اطلاقا ، لأنه يعلم ويؤمن بأن الله يسمع ويرى . . فهل يمكن لإنسان أن يرتكب ذنبا أمام رجل القانون ؟ . . فكيف أمام الله سبحانه وتعالى . . !

ان الإيمان بالله يشمل فضله كافة نواحى الانسان العضوية والنفسية والعقلية ، كما يشمل فضله المجتمع العام العالمى ، علاوة على المجتمع الذى يعيش فيه كل فى محيطه الخاص والعام ، ولا يمكن للباحث أن يحصى مايحققه الإيمان بالله من سعادة للانسان فى دنياه . . ، أما جزاء من يؤمن بالله سبحانه وتعالى فى الآخرة فهذا أوسع من أن

يحصر ، وأكبر من أن يسطر ، وأسمى من أن يكون موضع الحديث . . . فكل ما تتخيله من نعيم وجزاء فالحقيقة ستكون أكبر منه لا محالة . . فليتدبر المرء قول الله سبحانه وتعالى (وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) .

والآيات المشابهة كثيرة وكلها تؤكد أن جزاء المؤمنين المؤمنات أعظم مما يتصوره الانسان .

وتكاليف الدين وعباداته ، انما تهدف الى صالح الفرد نفسه ، وخير الجماعة التى تشمله . فالوضوء الذى يسبق الصلاة انما هو سبيل النظافة والتطهير لأعضاء الانسان الظاهرة التى تتعرض دائما لما يلوثها ، وكذلك لكافة مداخل الجسم التى تعتبر طريقه اصابة الانسان بالمرض ، وقد أفصح العلم الحديث عن بعض فوائد الوضوء الطبية فقرر أن كافة الأرشادات الصحية التى يعتمد عليها الطب الوقائى انما تماثل ما أمر به الاسلام فى الوضوء عند الصلاة ، وتكرار الوضوء خمس مرات فى اليوم هو أتم طريق للوقاية حتى فى أزمنة الوباء ، فقد اتضح ان طريق اصابة الانسان هو يداه أو نفه أوفمه ، أو عن طريق

اللامسة أو الهواء . . ويقرر علم الصحة كذلك أن الوضوء يفيد فى تنشيط وتقوية الأجهزة الدموية والتنفسية ، بل والعصبيةوالبولية . ·
ودراسات التربية تقرر أن الوضوء يجدد نشاط الإنسان فى عمله ، ويمنع عنه أى كسل أوخمول ، أما الناحيةالروحيةللوضوء فإحساس الانسان بأنه وقد غسل أعضاءه الظاهرة استعدادا للوقوف بين يدى الله انما يدفعه لأن يغسل تفكيره وداخله من كل ما كان يعتمل فيه نتيجة الصراع فى سبيل الرزق والحياة . . احتراما لأقدس اللحظات وأطهر الأوقات.

أما أهداف الصلاة فى نظر الأبحاث والدراسات العلمية الحديثة فإنها كثيرة ومتعددة وكلها تلتقى نحو غاية عليا هى سعادة الانسان فى دنياه وفوزه فى آخرته . . . فالمسلم يبدأ يومه بالصلاة فيتذكر فيها ربه اذ يمجده ويشكره، فقد كان فى عداد لأموات نائما فكتب الله له حياة جديدة فى يوم جديد . . وما أجمل أن يبدأ الانسان يومه بمنظر جميل ، أو سماع كلمة طيبة ، أو ترديد نغمة حلوة ، هكذا تقول الدراسات التربوية النفسية فهل هناك أجمل من منظر الانسان وهو يقف فى خشوع بين يدى الله سبحانه وتعالى ، وهل هناك أجمل من أن يبدأ الانسان يومه فيرفع يديه الى أعلى مكبرا الله سبحانه ثم يسجد الى الأرض مكبرا الله جل جلاله . . هل هناك كلمة أجمل من الله أكبر ،

أو نغمة أفضل من لا إله إلا الله . . وهل هناك أسعد من انسان يحس بأنه فى كنف عظيم مسئول ؟ . . فكيف بالإنسان الذى يقف بين يدى الله . . ويحس بأنه . . مع الله .. خالق الخلق . . و باسط الرزق ومدبر كل أمر . . . وهكذا بدأ الإنسان المسلم عمله . . على خير ما تكون البداية . . وعند انتصاف اليوم بعد أن اشتدت زحمة العمل و بدأ التعب ينال من الإنسان . . ينادى الاسلام على الانسان أن ينتزع نفسه من شواغله ، فيتوضأ ليجدد نشاطه ثم يقف لحظات بين يدى الله .. يخرج بعدها وقد مسحت الصلاة عن نفسه ماقد يكون أصابها وهكذا يقضى الانسان المجهد فى الصلاة وقتا طيبا مريحا طالبا أو موظفا أو عاملا . تاجرا أو زارعا سيدة ... أوشيخا... فلايغتر بمانال .. انمايعلم أنه من الله .. وان كان العكس . . صبر ولم يجزع بعد أن نبهته الصلاة الى وجود الله .. وأعطته الوقفة بين يدى الله . . قوة جديدة يستعين بها فى حياته .. ستمنع عنه الصلاة أى حقد قد يتولد فى نفسه على غيره .. وستمحو الصلاة من قلبه أى يأس قد يناله نتيجة عمله . . وشواغله . . وفى العصر . . يجدد الإنسان العهد ويؤكد النية لله . . ويظل على اتصال بالله وفى المغرب حيث ينتهى اليوم و يبدأ الانسان راحته اليومية ألا يجب عليه أن يشكر الله . . ويستعين به . و يدخل الليل مستعدا لأن يسلم نفسه لله فى رعايته وعنايته بعد يوم قضاه بفضله وتوفيقه

ونعمته يعمل أو يعيش . . وفى زحمة العمل والمعاش لابد للإنسان أن يكون قد أخطأ فى حق نفسه أو حق غيره . . فلا بد إذن أن يلجأ إلى الله يستهديه ويطلب مغفرته .. ويحمد الله ويشكره ويسلم نفسه للنوم فقد يكون ذلك آخر عهده بالدنيا فيكون على استغفار وتوبة ، وقد يبدأ له عمر جديد ، فى يوم جديد سيبدؤه بالصلاة .

والصلاة تفيد الإنسان صحياً فقد أثبت الطب أن الإنسان وهو فى صلاته ينخفض ضغط دمه .. وأن تكرار الصلاة على أصولها وباستيفاء شروطها يجعل الإنسان فى أمان من أخطر أمراض العصر . ألا وهى الناتجة عن الارتفاع المفاجئ للضغط .. وعلاوة على ذلك فقد عرف أن أوقات أدائها هى أنسب الأوقات لأداء بعض الحركات الجسدية التى تحفظ على الإنسان صحته وحركاتها أفضل وسيلة لتنشيط الدورة الدموية وتقوية كافة أعضاء الجسم ـ وتطالبنا أصول التربية الرياضية بإقامة مثل حركات الصلاة ـ وفى أوقاتها تماماً . . . وهذا آخر ما وصلت إليه أبحاث الرياضة .

والصلاة تعمل على إشاعة المحبة والسلام بين الأفراد والجماعات وتخلق المواطن الذى يعتز بنفسه إذ لا يخشى غير الله . . فتجعله متحرراً من كل خوف . . آمنا على نفسه . . إنه فى خير رعاية . . وإن الأمر

كله لله .. ومرجعه إليه .. والمسلم الذى يقف بين يدى الله خمس مرات فى اليوم . . إنما يرقبه فى عمله . . فلا يأثم ولا يكذب ولا يغش . . كما أن وقوف الإنسان فى الصلاة إنما تجعله لا يصاب بالكبرياء . . ولا الأنفة . . والصلاة سبيل إعلان المساواة بين الناس . . . فهى من كل ناحية . . . تشمل الإنسان ببرها وخيرها وفضلها . .

وهكذا فإن الصلاة تهدف إلى سعادة الإنسان ورفاهيته . . فى الدنيا . . أما الآخرة . . فقد أعد الله للمصلين مغفرة وأجراً عظيما . .

وتلتقى الزكاة مع الصلاة فى الهدف و إن اختلفت الوسائل ، فالزكاة حق واجب الأداء ، وهى السبيل إلى محاربة الفقر الذى يعتبر أهم مشكلة تواجه الفرد فى حياته ، بل تواجه الأمم والدول . . لذلك فقد عنيت الزكاة بالفقراء والمساكين وأبناء السبيل ، فخصصت لكل منهم جانباً من الزكاة ، كما اختصت غيرهم ممن قد يصابون بالحاجة لعارض طارئ كالغارمين .

ولا يقتصر فضل الزكاة على آخذيها كما قد يتبادر إلى الذهن ، إنما الزكاة لها على مؤديها فضل أكبر من ذلك ، فالعالم النفسى دريزر يقول : (إذا شاء الرجل أن يستخلص من الحياة المتعة فعليه أن يساهم فى اجتلاب المنفعة للآخرين ، فإن متعة الشخص تعتمد على متعة الآخرين ،

ومتعة الآخرين تعتمد على متعته) فدافع الزكاة يحس بالسعادة ويشعر بالرضا وهو يدفع من حر ماله دورياً ما يساهم به فى بناء المجتمع وإسعاد أفراده ، ويطمئن ويسعد بالوجوه الباسمة الراضية حوله فتصفو نفسه ، ويطمئن قلبه ، ويصبح عصياً على القلق ، بعيداً عن الجزع والانشغال والاضطراب النفسى . وأثبتت الدراسات أن الزكاة تحرر الإنسان من سيطرة حب المال على نفسه ، تلك السيطرة التى تؤدى بالإنسان دائماً ويقينا إلى المرض ، وأحيانا إلى الانتحار ، فجمع المال والبخل به هو السبيل إلى سيطرة حب المال على الإنسان . . وإذا سيطر هذا الحب حاول الإنسان الاستزادة منه . . دون نظر إلى طريقه إن كان حلالا أو حراما . . . وما من طريق إيجابى لمحاربة هذه السيطرة إلا البذل والجود والعطاء . .. لذلك فقد طالب الإسلام بالصدقة وحث عليها .. وحتى يضع الحد الأدنى للعطاء أوجب الزكاة . .

ومن الخير الذى تحققه الزكاة للمجتمع أنها صمام الأمان لكل مجتمع ، ومانعة الثورات فيه ، إذ أن الفقير الذى يعيش وسط مجتمع أفراده يعيشون فى ثراء ، ولا يتجاوبون معه بتقديم ما يقيم أوده ، ويمسح عنه فقره ، يشعر بالحرمان الذى يتولد معه كراهية هذا المجتمع وبغض أفراده ، وما الجرائم التى يرتكبها بعض الأفراد إلا وأهم

أسبابها الفقر ، وبعد أن يحس الفقير أنه منبوذ من غيره قد ترك وشأنه فتتولد فيـه كراهية للغنى الذى يحبس ماله عنه ، ومعظم الثورات التى تقوم فى الدول إنما سببها الرئيسى الفقر وإحساس الفقراء أنهم متخلفون عن ركب المجتمع .

والزكاة سبيل من سبل تحرير الرقيق وعتق الرقاب ، إذ خصصت سهما منها لهذا الغرض ، وبذلك تخلق فى المجتمع أفرادا متحررين يدعمون عوامل الإنتاج والقوة فى المجتمع ، وكذلك الغارمين إذ يعودون إلى الإنتاج والعمل بعد تسديد ديونهم التى حددت الزكاة سهما لها . ولا يتسع المجال مهما اتسعت الصفحات إلى بيان أوجه الخير التى تهدف إليها الزكاة بالنسبة للفرد والجماعة .

ومن بين الوسائل التى لجأ الدين إليها لتوفير سعادة الإنسان ورفاهية المجتمع صوم رمضان ، إذ لا شك أن إحساس الغنى بآلام الجوع والعطش يثير فى نفسه الرحمة والعطف على الفقير المحتاج ، علاوة على أن الروحانية التى يعيش فيها الصائم تجعله أكثر ميلا للخير وأشد انجذابا لطريقه ، هذا وقد أثبت الطب الحديث أن الصيام يعتبر من أهم الوسائل الفعالة فى وقاية الإنسان من كثير من الأمراض ، كما أنه أيضاً علاج لكثير من الأمراض العضوية والنفسية ، فقد عرف

أنه علاج ناجع فى اضطرابات الأمعاء ، وكثرة الغـذاء ، وزيادة الضغط ، وكذلك التهاب الـكلى الحاد والمزمن ، وأمراض القلب ، وأما فى البول السكرى فلما كان قبل ظهوره يكون مصحوبا غالباً بزيادة فى الوزن ؛ فالصوم يكون بذلك علاجاً نافعاً له ، ويشمل فضل الصوم مرضى الأمراض الجلدية ، إذ تتحسن معظم الأمراض الجلدية بالصوم حيث تزداد مقاومة الجلد لهذه الأمراض عندما تقل نسبة الماء فى الدم ؛ وأما من الناحية النفسية ؛ فإن الصوم يعتبر أفضل طريق إيجابى لغرس الأمانة فى نفوس الناس ، إذ لا رقيب على الصائم إلا ضميره ، وهو يعلم فى صومه أن أحداً لا يراه إلا الله ، فنجده يترك الطعام والشراب مختارا طائعاً ، ويحس بالجوع بينما تتوافر له إمكانيات الأكل والشرب ولا يمنعه عن ذلك إلا إيمـانه بأن الله يراه . . وكذلك يحقق الصوم فى نفس الصائم الصبر . . وما أشـد صبر الجائع على جوعه ، والظمآن على عطشه ، لا سيما إذا كان ما يحتاج إليه . . فى متناول يديه . . . .

ومما فرضه الإسلام على المسلمين حج بيت الله ، وليس الحج كما كان يعتبر من قبل مناسك وشعائر يرجو المسلم بها مغفرة الله ويعلن فيها توبته فحسب ، ولـكن باتساع الآفاق ، ودراسة ما دعت إليه آيات

الحج ، عرف أن الحج إنما هو مؤتمر عام يباشر المسلمون فيه أمورهم ويحلون مشكلاتهم ، ويتجاوبون به مع مختلف رغبات المسلمين . فهو مؤتمر سياسى ، إذ يجتمع فيه المسلمون من كل دولة مهما اختلفت نظم الحكم فيها يبحثون سياسة الدول مع المسلمين فيها . . وهو مؤتمر اقتصادى إذ أن من أهدافه تحقيق المنافع للمؤتمرين بنص الآية الشريفة (وَأَذِّنْ فِى النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ . لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِى أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ) ، وهو مؤتمر ثقافى ، إذ يضم كافة المستويات الثقافية ، ويبحث فيما يعود على المسلمين من خير وتقدم . . ومسايرة النهضات . الثقافية العالمية ، وهو كذلك مؤتمر يحقق بطرق إيجابية المساواة بين المسلمين ، ورفع روحهم المعنوية إذ يجد الفقير أنه يطوف بجوار الغنى ، وأنهما قد تجردا من كل ما يميز الغنى على الفقير . . أو الكبير على الصغير . . .

وفى الحج يبذل الإنسان بصفاء وسماح لغيره ، وترفرف على الجميع روحانية ومحبة وتسامح ، وكل ذلك إنما يحقق للإنسان سعادة نفسية ، وتنعكس هذه السعادة على المجتمع . .

وهكذا كل عبادات الإسلام ، إنما هى حلقات متماسكة تهدف جميعها إلى خير الفرد وسعادته . . وتحقق رفاهية المجتمع وعزته ؛ علاوة على ما فيها من جوانب روحية وما سيناله الإنسان من ثواب وجزاء فى الآخرة .

والشرائع التى جاءت بها الأديان إنما تهدف إلى صون المجتمع وحماية الإنسان وتوفير سبل السعادة له ما أمكن ذلك ؛ فالإسلام وهو آخر الأديان نجد أن تشريعاته قد رسمت للناس كيف تكون العلاقة بينهم البعض بالبعض ، بحيث لا يطغى القوى على الضعيف ، ولا يستغل الغنى الفقير ، ولم يترك علاقة بين أى إنسان وغيره إلا وعالجها ، وقرر بشأنها ما يحقق السعادة للطرفين المتعاملين . فأوضح الإسلام علاقة الأب بأولاده ، والابن بأبويه فى مختلف الحالات ، وكذلك قرر علاقة الرجل بزوجته من كل ناحية من نواحى هذه العلاقة ، وحدد حقوق كل طرف قبل الآخر وقبل المجتمع ، وكذلك واجباته ، كما حدد الإسلام علاقة البائع والمشترى ، والحاكم والمحكوم ، وبيّن علاقة أى إنسان وكل إنسان بالمجتمع حتى ابن السبيل والمسكين بل والغريب عن المجتمع . . وعن الديار . .

وتبشر الأديان بحياة أخرى بعد الموت ، وتقرر البعث والحساب

فى يوم الجزاء ، و إنه على قدر عمل الإنسان فى حياته يكون أجره فى آخرته ، وإن كل قول أو فعل للإنسان إنما هو مقيد على صاحبه بلا تغيير أو تحريف . . وسيعيش الإنسان بعد موته فى ظل قوله وفى ضوء عمله ، حتى يبعث ليقضى حسابه و يستوفى جزاءه .

وهكذا ترسم الأديان للناس الطريق الذى يؤدى بهم إلى السعادة الكاملة المطلقة . و بهذا يتفق العلم فى أغراضه مع الدين وأهدافه .

فيا ترى هل يتعارضان بعد ذلك و يتناقضان . . . ؟

أم ترى لا بد يتفقان . . .

مصدر العلم ..
مصدر الدين ..

لا شك أن مصدر الأديان كلها هو الله سبحانه وتعالى الذى يصطفى من عباده رسلا وأنبياء ، فيوحى إليهم ليكونوا دعاة لعبادة الله وحده ومبشرين ومنذرين ، ولقد أنزل جل شأنه على الرسل كتبا سماوية تحوى شرائع الحياة وعقائد الدين ، ولا يعرف عدد هؤلاء الرسل والنبيين حتى ولو على وجه تقريبى ، إذ أنهم قد أرسلوا على فترات من الزمن ، كلما دعت حاجة الأقوام إلى ذلك ، والله سبحانه وتعالى هو الذى أوحى إلى هؤلاء الرسل والنبيين بالنص الشريف « إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاودَ زَبُورًا . وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا » .

وكما أنزل الله سبحانه وتعالى على سيدنا داود الزبور بنص الآية الشريفة . «وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاودَ زَبُورًا »، فقد أنزل التوراة

على سيدنا موسى والإنجيل على سيدنا عيسى والقرآن على سيدنا محمد عليهم جميعاً الصلاة والسلام ، وذلك بنص الآية الشريفة « إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » .

وما كان لواحد من الرسل والأنبياء أن يأتي بجزء يسير من المعجزة التي أقنع بها قومه إلا أن يكون رسولا من الله سبحانه وتعالى ، وأن يكون مؤيداً من الله جل شأنه بما يظهر حقيقة صدق رسالته ؛ فسيدنا إبراهيم نشأ بين قوم أهل أوثان ، وكان أبوه نجاراً ينحت الأصنام ويبيعها لمن يعبدها ، فأنار الله سبحانه وتعالى بصيرة إبراهيم ، وهداه إلى الحق . إن هذه الأصنام لا تسمع ولا تبصر ، ولا تنطق ولا تجيب ، ولا تضر ولا تنفع ، وإن المعبود بحق هو الله الذى خلق السماوات والأرض ، إذ تقول الآيات الشريفة : « وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ . إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ . قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا

عَابِدِينَ . قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ . قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ . قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ . » ولما لم تفدهم الموعظة أراد أن يثبت لهم فساد معتقداتهم. وتفاهة أصنامهم بطريق عملى. فلما حطم أصنامهم ، وعرفوا أنه هو الذى فعل بأصنامهم ذلك استدعوه للمحاكمة ، ووجدها إبراهيم فرصة سانحة ليظهر حجته واضحة جلية أمام الملأ إذ تقول الآيات الكريمة :

« وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ . فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً إِلَّا كَبِيراً لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ . قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ . قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ . قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ . قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ . قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ . فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ . ثُمَّ

نَكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاءِ يَنْطِقُون . قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ . أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَفَلَا تَعْقِلُون . »

فلما أسقط فى يدهم ورأوا أنه قد تغلب عليهم بحجته ، أخذتهم العزة بالإثم ، ولم يؤمنوا ولجأوا إلى أسلوب الوحشية الهمجية ، وقرروا أن يقتلوه حرقاً بالنار ، وأوقدوا النار وألقوه فيها . . فكانت النار برداً وسلاماً على إبراهيم .. وهذه معجزة لا يمكن لبشر مهما أوتى من القوة أن تجرى عليه إلا إذا كان مؤيداً من الله وحده جل شأنه ، وفى هذا تقول الآيات الكريمة : « قَالُوا حَرِّقُوه وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِين . قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ . وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِين . وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِين. وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلاًّ جَعَلْنَا صَالِحِين » .

أليس بذلك يكون إبراهيم رسولا مؤيداً من الله سبحانه وتعالى ؟ . . .

وهذا سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام كان يرعى غنمه ذات يوم — كما كان يفعل كل يوم — ومعه امرأته ، فضل الطريق ، واشتد البرد ، وأقبل عليهما الليل ، فأراد أن يوقد ناراً تؤنسهما وتدفئهما ، ولـكنه فشل إذ ضن زناده بالشرر ، وفى أثناء تـكرار المحاولة رأى ناراً من بعيد ، فاستأذن من أهله ليذهب ويأتى منها بجذوة ، أو يجد عند النار من يهديه إلى الطريق ، واقترب موسى من النار فوجدها فى شجرة عليق ، ولـكن العليقة لا تشتعل والنار لا تطفأ ، ولم يجد عندها أحداً ، فاستشعر الخوف فى نفسه ، إلا أنه سمع صوتاً من وسط النار يناديه يا موسى إنى أنا الله رب العالمين ، وسأله ما بيمينه وهو الأعلم بها ، ولـكن حتى يُهدئ روعه ويُطمئن نفسه ، فأجاب بأنها عصاه التى يتوكأ عليها ويهش بها على غنمه أثناء رعيها ، وله فيها منافع أخرى ، فأمره الله أن يلقيها فإذا بها وكأنها حية تسعى فجرى موسى خائفاً ، ولـكن الله جل شأنه أمره بالعودة وألا يخاف ، فستعود العصى إلى سيرتها الأولى ، ثم أمره سبحانه وتعالى أن يدخل يده فى جيبه فتخرج بيضاء من غير برص أو مرض آخر ، ثم يردها فى جيبه لتعود كما كانت على لونها ، فهذان برهانان فليذهب إلى فرعون وقومه بهما ليدعوهم إلى عبادة الله وتوحيـــــده ، وفى ذلك تقول آيات القرآن الـكريم « وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى . إِذْ رَأَى نَاراً فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا

إِنِّى آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّى آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدَى . فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِىَ يَامُوسَى . إِنِّى أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى . وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى . إِنَّنِى أَنَا اللهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِى وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِى . إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى . فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى . وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَامُوسَى . قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى . قَالَ أَلْقِهَا يَامُوسَى . فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَى . قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى . وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى . لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى . إِذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى » .

وذهب موسى إلى فرعون يدعوه إلى ما أمره الله به ... أن يؤمن بالله الذى خلق السماوات والأرض ، وأن يعبده وحده الذى خلق الحياة

والموت ، ولكن ما كان فرعون ليؤمن بالرغم مما أورده له موسى من شواهد عقلية ، وحجج منطقية ، فأظهر له موسى البينة على أنه مؤيد من الله سبحانه وعبده ورسوله ، وألقى عصاه وعرض عليه يده ولكن كان عند فرعون من السحرة المهرة ما جعله يعتقد أن موسى إنما هو ساحر على شاكلتهم فجمع السحرة فى يوم عيد من أعيادهم حيث يجتمع الناس فى أكبر حشد وأعظم زينة ، فألقى السحرة حبالهم فاهتزت فى أعين الناس وكأنها تتحرك من تأثير السحرة على المشاهدين ، فألقى موسى عصاه فإذا بالعصا تبتلع حبال السحرة بسرعة مذهلة ، وعلم السحرة أن السحر لا يمكن أن يفعل مثل ذلك وإنما هى لا بد قوة خارقة لا يستطيعها الإنسان العادى إلا إذا كان مؤيداً من رب العالمين ومرسلا من الرحمن الرحيم فسجدوا لله رب العرش العظيم ، وهذا ما يقرره القرآن الكريم فى مثل الآيات الشريفة : (وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ . حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِى إِسْرَائِيلَ . قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ . فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ . وَنَزَعَ

يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ . قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ
إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ . يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ
فَمَاذَا تَأْمُرُونَ . قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ
حَاشِرِينَ . يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ . وَجَاءَ السَّحَرَةُ
فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ . قَالَ نَعَمْ
وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ . قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا
أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ . قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ
النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ . وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ
مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ . فَوَقَعَ
الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا
صَاغِرِينَ . وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ . قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ
الْعَالَمِينَ) .

ألا يكون موسى رسول الله سبحانه وتعالى ، ومؤيدا منه جل شأنه بما يثبت صدق رسالته وحق نبوته ؟ . .

وقست بعد ذلك قلوب بنى إسرائيل بعد أن طال عليهم الأمد فحرفوا شريعة الله التى جاءهم بها رسول الله إليهم موسى ، وتهالكوا على المادة ، وتكالبوا على المال ، وتركوا العبادات حتى كان لابد من إعادة تذكيرهم ، فأرسل الله سبحانه وتعالى إليهم سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام ، و بالرغم من أنه ولد من مريم بلا أب ، وأنه كلم الناس وهو فى المهد . بنص الآيات الشريفة (فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا . يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا . فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا . قَالَ إِنِّى عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا . وَجَعَلَنِي مبَارَكاً أَيْنَمَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا . وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا . وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا .)

إلا أن اليهود كذبوه ، ولم يصدقوه ، وكان فى حاجة إلى معجزات مادية أيده الله سبحانه وتعالى بها ، فمنها أنه كان يخلق من الطين أشكالا

تشبه الطيور ثم ينفخ فيها فتصبح طيراً بإذن الله جل شأنه . وكان الطب يعتبر مما برع فيه قومه ، ولكن استعصى عليهم مرض البرص ، وكذلك لاشفاء للأكه — وهو الذى يولد أعمى — وكان المرضان من الأمراض التى لاعلاج لها فكان عيسى يبرئ الأكه والأبرص بإرادة الله ، بل زاد على ذلك ما لم يكن متوقعا إطلاقا ، ألا وهو إحياؤه للموتى بمشيئة الله تعالى ، وكان كلما نزل فى قوم أنبأهم بما يأكلون و يدخرون فى بيوتهم وفى ذلك تقول الآيات الشريفة :

(وَرَسُولاً إِلَى بَنِى إِسْرَائِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِن رَبِّكُمْ أَنِّى أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِ الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

ألا يكون فى ذلك الدليل الذى لا يحتاج الأمر بعده إلى دليل على أن عيسى رسول الله ، وأن الله جل شأنه قد أيده بمعجزات لا يمكن أن تتم على يد بشر إلا إذا كان رسولا منه سبحانه .

وبين قوم اشتهروا بالكفر والجاهلية ، وتميزوا على غيرهم بالقسوة والعنجهية ، وعرفت عنهم الشراسة والعصبية واختص عصرهم بالفصاحة وامتلكوا زمام اللغة العربية ، أرسل الله للعالمين خاتم الرسل والنبيين ، سيدنا محمداً الصادق الأمين ، وما كانوا ليستمعوا إليه أو يستجيبوا له إذا لم يكن مؤيداً بمعجزة تبهرهم .. ويؤمنون بأنها لا يمكن أن تكون من فعل الإنسان وإلا استطاعوها هم .. فتلى عليهم قرآنا عربيا ، لا هو بالشعر، وما هو بالنثر ، ولكن آيات بينات . . ومعجزات باهرات .. وأنوار مشرقات في ١١٤ سورة تشتمل على ٦٢٣٦ آية وتحوى ٧٧٤٣٩ كلمة .. هو أعلى من الفصاحة .. وأسمى من البلاغة . . وأروع من أى تركيب وأشرف من كل بيان . . هو القرآن . . تحدى العرب أن يأتوا بسورة من مثله ، ولو اجتمعوا جميعاً لذلك بالنص الطاهر الشريف :

(وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ) .

وأورد القرآن الكريم الذى نزل على رسول أمى لا يقرأ ولا يكتب

قصص الأمم السابقة ، والأديان السالفة ، وأخبار القرون الغابرة بنص مثل الآية الكريمة :

(كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا) .

وتضمن كافة التشريعات التى يحتاجها الإنسان فى حياته ؛ وتبين له حدود علاقاته بكل من حوله ؛ وتوضح له حقوقه وتفرض عليه واجباته وصدق القرآن الكريم الذى يقول :

(وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ) .

ويحوى القرآن بضع مئات من الآيات العلمية التى تتضمن أسس علوم لم يعرفها العالم إلا بعد عشرات المئات من السنين من إيرادها فى القرآن الكريم ؛ ولا تقتصر هذه الآيات على علم بعينه ؛ أو فن بذاته ، ولكنها تشمل مختلف العلوم الطبيعية والفلكية والجغرافية والاقتصاد والقانون والزراعة والنبات وغيرها ، بل وتشمل فروع العلوم كالطب الوقائى ، والطب العلاجى والطب النفسى ، وعلم الأجنة ، ونجد أن كل من نال

أى قسط من العلم وتدبر القرآن الكريم ليشهد بإعجازه ؛ ويؤمن برسالة ونبوة من نزل عليه ؛ ويقول القرآن الكريم مقرراً ذلك فى مثل الآية الكريمة : (وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِى أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِى إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) .

هذه هى المعجزة التى تدبرها الناس فآمنوا بأن محمدا صلى الله عليه وسلم رسول الله قد بعثه بالحق بشيرا ونذيرا ، وأنه مؤيد من الله سبحانه وتعالى ليظهر دينه على الدين كله ولو كره المشركون .

ويعترف الرسل والأنبياء جميعا بأنهم رسل الله جل شأنه ، وليس لهم فيما جاءوا به إلا التبليغ ، وذلك بنص الآيات الشريفة :

(كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ . إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ) .

(كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ . إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ) .

(كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ . إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ) .

(كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ . إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ) .

(كَذَّبَتْ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ . إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ) .

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ) .

(وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ) .

(قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) .

بل لا يدرى الرسول مايفعل به ، ولا بالناس من حوله ، إذ أنه يتبع مايوحى إليه من الله ، وذلك بالنص الشريف : (قُلْ مَا كُنْتُ

بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ) .

وبالرغم مما يجىء فيما يوحى إليه به من أنباء الغيب ، وما يظهر على يديه من معجزات فالرسول — كل رسول وأى رسول — لايعلم هذا الغيب ، ولايزيد عن البشر إلا فى أنه يوحى إليه من الله جل شأنه وفى ذلك تقول الآيات الشريفة :

(قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ) .

(قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ) .

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ) .

فليس من شك فى أن مصدر الدين هو الله سبحانه وتعالى .

فما مصدر العلم ؟

لقد دامت أبحاث العلماء عشرات السنين وهم يدرسون مصدر العلم ، وهل هناك علاقة بين العلم والذكاء ، أو بين العلم والصفات التشريحية للإنسان ، وهل ما كان ينادى به العلماء سابقاً من وجود سلالة متفوقة لدى شعب بعينه أو دولة خاصة يعتبر صحيحاً بعد تلك الدراسات الشاملة التى قام بها العلماء فى مختلف الدول وعلى كل أمور الإنسان؛ لقد أحصى علماء الأحياء مايقرب من ٢١٢ خصلة من الخصال الإنسانية وجد أن جميع قبائل البشر تشترك فيها ، وأن كل تطور يتم فى جسم الإنسان إنما يلازم البشر ، فإذا كنا من قديم الزمان استطعنا أن نحرك الأذن أو فروة الرأس لطرد الذباب فضمرت العضلات التى كانت تحركها لعدم الحاجة إليها حالياً ، وإذا كنا الآن فى سبيل فقد خناصر أقدامنا ، فإن البشر كافة متساوون فى هذا التطور . وقد أثبت العلماء أنه لا فرق بين البشر فى أى مكان على سطح الأرض بالنسبة للصفات التشريحية الأساسية ، فالمخ والقلب والرئتان والأعصاب كلها أجهزة يتساوى الإنسان مع غيره فيها فى كافة الأنحاء .

وكثيراً ماتردد القول بأن هناك صفات يتميز بها شعب عن آخر ، فالإسكيمو مثلا مشهور بكبر حجم المخ نسبياً ، فمخ الإسكيمى أضخم مخ بشرى لو قيس بحجم بدن صاحبه ، ويأتى بعده مخ اليابانيين ،

وكثيراً ما ربط العلماء بين ذلك و بين الذكاء والعلم ، وقد أثبتت الدراسات عدم صحة هذا القول على الإطلاق ، وقد وجد مثلا أن أصغر مخ أمكن للعلماء رؤيته ، وكان موضع دراسة طويلة ، هو مخ العبقرى الإيطالى دانتى ، وكثيراً ما وجد العلماء أضخم مخ فى رأس معتوه ! .

وقد وضع واترمان فى كتابه (رسائل فى علم البشر) كشفاً يوضح أن المخترعات لم تكن وقفاً على شعب دون غيره ، ونجد فى هذا الكشف أن النحاس والبرونز والقمح والمحراث والحروف الأبجدية والطوب انحدرت إلينا من قدماء المصريين ، وأن العملات والأوزان من الشمريين ، والقانون المبوب والنقود المسكوكة من البابليين . وقد تعهد الأشوريون شئون القطن والمصارف ونظام البريد ، وأورثنا الكلدانيون الفلك والأسبوع ودرجات الدائرة ، وأخذنا عن العرب الحساب والجبر والأرقام، وعن الإغريق هندسة إقليدس ، والألاووظ، وعن الصينيين الخزف والبارود والحرير والمطبعة .

ويقول رالف لينتون (يطلع الفجر على الإنسان وهو فى غلالة نومه المنقولة إليه من جزائر الهند الشرقية، و ينظر فى ساعته التى هى من اختراع أوروبا ، ثم يذهب إلى حمامه فيرى الخزف وهو من الصين ، وفرشاة الأسنان والصابون من فرنسا ، والمرحاض من أصل رومانى ، والموسى من

الهند ، فإذا جلس للإفطار ، فإذا هو أمام حشد من آثار شعوب شتى ، ومخلفات عصور بعيدة ، فالشوكة من اختراع إيطاليا ، والقهوة اكتشفها العرب من الحبشة ، والسكر من الهند ، والفطائر من اسكنديناوه ، ثم يركب القطار الذى اخترعه إنجليزى ، ويدخن سيجارة أصلها من مكسيكا) ولو قلب الإنسان بصره فى العالم المحيط به لوجد أن العلم الذى وصل البشر إليه تتساوى الدول فى أساسه ، فكما تقوم روسيا بنشر علمها تقوم إنجلترا . وأمريكا تكتشف كما تكتشف اليابان والصين ، بل إن الدول الصغيرة التى لا يزيد عددها على عشرات الآلاف تقف على قدم المساواة إن لم تزد مع أكبر الدول فى الإنتاج الفكرى والاختراع الذهنى ، وآخر الأنباء وأحدثها وألصقها بنا ، أن جمهوريتنا العربية المتحدة تساوت مع إنجلترا فى أكبر مؤتمر علمى وأن واحداً من أبنائها ترأس المؤتمر ، وأن المؤتمر اختار من علمائنا واحداً وعشرين ليكونوا رؤساء اللجان العلمية بالمؤتمر ؛ فما مصدر العلم إذاً . . . ؟

إننا لو درسنا تاريخ حياة العلماء لا سيما هؤلاء الذين يعتبرون فى القمة منهم ، باعتبار أن العلماء هم وسائل إظهار العلم ، لوجدنا فى هذه الدراسات ما يشير إلى مصدر العلم بجلاء ووضوح ، فمعظم هؤلاء القادة لم يميزهم عن غيرهم فى طفولتهم الذكاء الوقاد ، أو النباهة الباهرة ، بل

بالعكس نرى البعض منهم دون المستوى العادى من الفهم والذكاء ، وأكثر هؤلاء العلماء لم يكونوا فى فسحة من العيش ويسر الحياة بحيث تتوافر لهم إمكانيات البحث والدراسة ، بل بالعكس كانت الغالبية منهم يجهدها السعى فى سبيل الضرورى من وسائل الحياة ، ويحجبهم عن سعة الفهم الانشغال فى أمور العيش .

فهذا توماس الفا اديسون الذى يقول عنه أحد المؤرخين : « قلب صفحات التاريخ باحثاً عن شخصية حقيقية أو خرافية تضعها وشخصية اديسون فى كفتى ميزان ، فلن يستقر بك النوى إلا وقد طويت ألوف السنين راجعاً إلى جاهلية اليونان ، فتقف فى خرافاتهم وسير أبطالهم على قصة البطل بروميثيوس الذى سرق النار من الآلهة ليمنحها للناس » . . أى أنه كما يعترف قدماء فلاسفة اليونان بأن بروميثيوس صاحب فضل على الناس جميعاً ، إذ تروى أساطيرهم خرافة أنه سرق جذوة نار من الآلهة ظلت تشتعل ويستخدمها البشر حتى الآن ، فكذلك يكون لاديسون مثل هذا الفضل ، فقد اكتشف النور الكهربائى المتوهج ، فأضاء به طريق الحضارة والعمران . . ويكفى لمعرفة أثر اديسون أن يتخيل الإنسان الحياة ، وهى ما زالت تضىء بقناديل الزيت أو الجاز . . فهل كانت تقوم لنا أية حضاره . ؟

ولد إديسون فى ١١ فبراير عام ١٨٤٧ وكان والداه فقيرين ، بل معدمين ، فما أن أصبح عمره أربعة عشرة سنة حتى اشتغل ببيع الصحف فى إحدى القطارات ولحساب غيره ، فلم يكن عنده ولا عند والديه ما يسمح له بشراء كمية من الصحف يبيعها لحسابه . . وحدث أن رأى أثناء بيعه الصحف يوما ولداً سقط أمام القطار الذى كاد أن يمزقه ، فأسرع إديسون إليه وخاطر بنفسه حتى أنقذه ، وكان والد هذا الطفل من مستخدمى التلغراف فى السكة الحديد ، فأراد أن يكافئه على حسن صنيعه ، فعلمه كيفية استعمال التلغراف ، ثم ألحقه عاملا بمصلحة التلغرافات المتعلقة بالسكك الحديدية ، واشتغل إديسون فى محطة بلده ، وكان موعد خدمته فى الليل، و بدلا من أن ينام بالنهار ليستطيع السهر، كان يقضى النهار فى منزله يجرى تجارب على هذا الجهاز العجيب الذى يستعمله ، آلة التلغراف ، وحدث ما لابد أن يحدث إذا استولى عليه النوم أثناء عمله فلم يجب على مخاطبة زملائه له فى المحطات الأخرى ، وأنذره مفتش المحطات ، وأمره أن يرسل إليه إشارة خاصة كل نصف ساعة لكى يثبت أنه مستيقظ ، واستجاب إديسون لأمر المفتش بضع ليال ، إلى أن أراد هذا المفتش أن يتصل بإديسون لأمر هام ، فجعل يطلبه وما من مجيب ، بينما الإشـــارة ترد بانتظام فى مواعيدها المقررة

كل نصف ساعة ، فأسرع المفتش إلى المحطة التى يعمل فيها إديسون ، وأطل من النافذة ليجد إديسون نائماً وأمامه آلة اخترعها تتولى إرسال الإشارة المتفق عليها كل نصف ساعة . . . وفصل إديسون من عمله . . وذهب يبحث عن عمل وكان عمره لا يزيد على اثنين وعشرين عاما ، فكان رد أصحاب الأعمال الاعتذار والرفض ، ودخل إديسون مكتب شركة تلغرافية بوول ستريت بنيويورك ، وهو شارع الأعمال المالية والتجارة ، وكانت هذه الشركة تقوم بتغطية كافة المحلات التجارية بأسعار الأوراق المالية وتقلباتها مرة كل ساعة عن طريق الإشارات التلغرافية المتتابعة ، ورفض موظفو الشركة السماح لإديسون بمقابلة المدير لسبب واضح هو ما كان على هذا الفتى من ثياب رثة ، وما يبدو عليه من فقر شديد ، و بينما هو يستعد لمغادرة الشركة تعطل الجهاز التلغرافى ، فساد الهرج وتقاطر على الشركة مندوبو المحلات التجارية التى تتعامل مع الشركة يصيحون و يهددون ، فإن تعطل الجهاز معناه عدم وقوفهم على تطورات الأسعار ، وقد يؤدى جهلهم بهذه التقلبات إلى الإفلاس والخراب ، وخرج إليهم المدير يهدئ من ثورتهم ، ولكن عجز الجميع عن إصلاح الجهاز . . فتقدم فى هذه العاصفة إديسون دون إذن يفك الجهاز ويفحصه ويعيد تركيبه ، وفى دقائق معدودة عاد الإرسال

واستأنف الجهاز عمله . . وكان نصيب إديسون وظيفة فى الشركة براتب قدره ستون جنيهاً فى الشهر وهو المرتب التالى لمرتب المدير .

واخترع اديسون بعد ذلك طريقة إرسال الرسائل التلغرافية المتعددة على سلك تلغرافى واحد ، وقد حدد فى داخل نفسه لبيعها ستمائة جنيه وهذا منتهى ما كان يحلم به فكان أول عرض من جانب شركة التلغراف الأميريكية له مقابل هذا الاختراع ثمانية آلاف جنيه .

هذا هو إديسون الذى اخترع المصباح الكهربائى والفونوغراف وآلة الصور المتحركة وآلة تدوين الاختلاف فى حرارة الأجسام والمرسل الكربونى وعشرات الاختراعات فى ميدان الكهرباء العملية .

وتعتز ألمانيا برائد من رواد العلم ، وقائد من كبار علماء العالم ، وهو كبلر الذى أراد أن يدرس ما لم يسبقه إليه عالم ، إذ كتب فى مقدمة أحد مؤلفاته ما نصه (هناك ثلاثة أشياء سعيت إلى معرفة عللها سعياً متواصلا وهى معرفة عدد السيارات فى السماء وأحجامها وحركاتها) .
وقد تمكن من الوصول إلى حقائق علمية ثابتة ، ومؤكدة ، وجديدة ، عن دوران السيارات حول الشمس وأشكال مداراتها ، وزمن الدورة وخطها ، ثم وضع جداول ظهرت فى عام ١٦٢٧ كان لها أثرها فى تأمين

الملاحة واهتداء الملاحين بها ، ولا يقتصر ما اكتشفه كپلر على ذلك بل إنه وصل إلى تحديد درجات انكسار الضوء فى العدسات ، وأوجد العلاقة بين زاوية سقوط الشعاع وزاوية الانكسار ، ولم تكن حياة كپلر الأولى بالحياة السهلة الميسرة ، ولم يولد من أب عالم أو أم مثقفة، بل إنه ولد فى ٢١ ديسمبر ١٥٧١ من أب خامل يعيش من خدمة الناس فى حانة صغيرة افتتحها وأم جاهلة كانت معروفة بسوء الطبع ، ولوحظ على كپلر منذ ولادته ضعف بنيته ، وكثرة مرضه ، فما أن بلغ الرابعة من عمره حتى أصيب بالجدرى ؛ ووصل به هذا المرض إلى درجة شارف فيها على الموت ، ولم يتركه إلا سقيما معتلا . ثم اشتغل فى الحانة يعاون والده بتنظيف الحانة وغسل الأكواب وخدمة المترددين عليها ، ثم التحق بمدرسة الدير فى بلدته ليصبح بعد ذلك قطباً علمياً خلده العلم ويحترمه العلماء .

وإذا ذكر علم الفلك فلا بد أن يذكر وليم هرشل الذى يعتبر فى مقدمة علماء الفلك الذين وضعوا حقائق قاطعة فى الميدان الفلكى ، فقد اكتشف النظام الشمسى ، واكتشف السيار أورانوس ، وكذلك البقعتين البيضاوين على قطبى المريخ ، وقد أقام المراصد على أسس علمية جديدة على العلم وقتذاك ، هذا العالم ولد عام ١٧٣٨ بألمانيا من أب

يشتغل موسيقيا فى الجيش ، وكم لاقى هذا الأب فى سبيل إطعام أسرته الكثيرة العدد وكسوتهم ، وكان الأب يجمع أولاده فى أوقات فراغه ، يعلمهم الموسيقى كاحتراف ليعيشوا منها ، وفعلا التحق وليم بفرقة الحرس فى شبابه كعازف أرغن ، ولكن ترك الفرقة وهو فى التاسعة عشرة من عمره لضعف صحته ، ورحل إلى إنجلترا ليلتحق بالفرق الموسيقية المختلفة عازفا على أى آلة حتى يتمكن من العيش ، ثم نظر إلى السماء فرأى النجوم ، وانصرف إلى دراستها قارئا كل ما كتب عنها .. فوصل إلى ما جعله من أئمة علماء الفلك .

وهذا فراداى من أكبر علماء الطبيعة كما يعتبر رائدا من رواد الكيمياء ، وكذلك هو ساحر علم الكهرباء ، فقد اكتشف فى الكهرباء ما أمكن به استخدامها فى المولدات والمحركات ، كما اخترع أول آلة لقياس الطاقة الكهربائية ، ومكتشفاته لا تقع تحت حصر إذ أن الكيمياء والطبيعة والكهرباء تعتبر أسيرة اكتشافاته . نجد هذا العالم الذى ولد فى ٢٢ سبتمبر ١٧٩١ بيوركشير كان أبوه حدادا متنقلا ، وأمه جاهلة تعاون زوجها فى عمله حتى يمكن لهما كسب ما يقيم أودهما ، وما أن وصل فراداى إلى الخامسة من عمره حتى أصيب والده بداء أقعده عن العمل ، وساءت حالة إنجلترا الاقتصادية عموما ، فلما طلبت

أسرة فراداى الإعانة من الحكومة كان نصيبه من هذه الإعانة رغيفاً كل أسبوع .

وفى يوم ٦ سبتمبر عام ١٧٦٦ أصبح عدد أولاد دالتن — ذلك الرجل الفقير الذى يشتغل بحياكة الملابس فى إنجلترا — خمسة أولاد ، ولقد أصابه القلق على مصيرهم ، فكيف ينفق عليهم وعلى نفسه وعلى زوجته .. وكان هذا الولد الأخير هو جون دالتن الذى اكتشف الذرات ، ووضع أساس علم الكيمياء بعد أن قلبه رأساً على عقب .. اشتغل جون فى أحد الحقول يساعد والده على أمر عائلته .. فكان معه دفترا صغيرا يدون فيه شواهده لأحوال الجو والهواء ، وما أن علم أن بجوار الحقل ضيعة لفيلسوف كفيف يدعى جوف ، حتى توجه إليه ، وتوثقت بينهما صداقة عجيبة ، إذ كان دالتن ينقل للفيلسوف ما يراه بعينيه ، ويقرأ له ما يشتريه من كتب كان يجد صعوبة فى العثور على من يقرأها عليه بالترتيب والإلقاء الذى كان يقرأ به دالتن .. لقد أثار عجب دالتن ما عرفه من أن الهواء مؤلف من أربعة غازات هما : الأكسجين والنتروجين وثانى أكسيد الكربون وبخار الماء. فكيف يتركب الهواء من هذه الغازات ؟ . أهى متحدة ببعضها أم هى خليط كالرمل والحصى ؟ ... فأوجد النظرية الذرية التى اعتبرت فى وقتها بل

وبعدها ولمدد طويلة ، أهم النظريات التى وصل إليها العلماء فى علم الـكيمياء .

أما السير أوليفر لودج العالم الطبيعى الذى استطاع أن يبدد الضباب الـكثيف باستخدام الـكهرباء ، وربط بين العلم والفلسفة عن طريق الأثير ، وهو المادة التى يجب أن تـكون موجودة بين كل ما نراه من الـكواكب والأفلاك إذ لا خلاء فى الوجود ، وهـذه المادة نفسها هى أساس الحياة الروحية التى يعيشها الإنسان بعد موته ، وكذلك دراساته وحقائقه العلمية التى أوجدها فى اللاسلـكى والقوى الكهربائية لما يعترف بها العلم الحديث . . هذا العالم الذى ولد فى ١٢ يونيه ١٨٥١ كان أبوه خزافا ، ولفقره فقد استخدم ولده أوليفر فى مساعدته فى أعمال الخزف وقد اتفق أن وقعت فى يده مجلة انجليزية اسمها (الميكانيكى القديم) كانت هى الطريق إلى مجده العلمى الـكبير ، وأصبح مساعد الخزاف رئيسا لمجمع تقدم العلوم البريطانية ، ورئيسا للجمعية الطبيعية ، ورئيسا لجمعية المباحث الفنية ، ورئيسا لجمعية رنتجن .

وهكذا نجد معظم العلماء والفلاسفة قد بدأت حياتهم ولا يميزهم عن غيرهم ما يمكن أن يكون مصدراً لعلمهم ، بل بالعكس نجدهم أقل من المستوى العادى فى درجة التحصيل العلمى و إمكانياته .

وكذلك إذا بحثنا كيف اهتدى هؤلاء العلماء إلى حقائق العلوم نجد أن هذه الحقائق قد انبعثت فيهم وكأنها تلقى عليهم من خارج أنفسهم ، فبديهى أنه ليس للعقل الباطن أى أثر فى ذلك لعدم وجود تجارب سابقة ، أو حالات علمية من قبل ، وكذلك لا يوجد ما يمكن أن نسميه غريزة علمية أمكن بها اختراع أو اكتشاف جديد فى العلم ، وقد اعترف معظم العلماء بذلك اعترافا صريحا . .

لقد سئل فراداى عن سر هذا النجاح الكبير الذى حققه فى علوم الطبيعة والكيمياء والكهرباء ، واكتشافاته المثيرة فيها دون أن يكون بارعاً فى العلوم الرياضية التى تعتبر أساس ما اكتشف ، فأطرق قائلا إنه ينظر إلى طبيعة الأشياء فيرى كأن ريشة سحرية تخط على صفحات عقله الآراء المبتكرة ، فيمتحنها فى مخبره فإذا بها هى الحقيقة المنشودة .

ودافى عالم الكيمياء العالمى ، كتب لأمه بعد أن نجح فى علم الكيمياء نجاحا جعله على أبواب الشهرة يقول لها : (كان من حسن طالعى أنى لم أجبر وأنا صغير على اتباع خطة معلومة للدرس ولا نصحت بالاجتهاد وهذا سبب ما تولد فىّ من الذوق العلمى) . وقد نشأ وأبوه عاملا من عمال البناء ، فلم يتمكن لذلك من إدخاله إلى المدرسة ، ولما نجح وفتحت له المحافل والبيوت الكبيرة ، وانهالت عليه الهدايا وكان يراسل صديقا

قديما له فكتب له رداً على ما أبداه الصديق من خوف عليه وعلى علمه من هذا التغيير فقال : (لا تخش ياصديقى ولا تقلق من تأثير المجتمع العالمى فى عقلى . إن فى الرجال الذين يميلون إلى الاشتغال بالشئون العلمية عناصر أو طبائع لا تتغير ، ولهم خيال لا يستقر ولا يشبع ، والبحث عن العلم هو بحث عن الجمال الخفى والسحر المجهول) وكتب فى آخر لحظات حياته وهو يواجه الموت : (ها أنذا على فراش الموت، ولقد زاغت حواسى ، وأخذت أعضائى تتخاذل إلى الهوة التى تتحول فيها إلى ذراتها الأولى ، ولكن عقلى لم يغب . إن الفلسفة التى بثت الحرارة فى دمى أثناء حياتى لم تهجر ربيبها وهو على فراش الموت وإننى لأعتقد أن حرارة شمس الخلود التى أضاءت من ضلال هذا الهيكل بنور ضعيف ، سوف تغمرنى دائما فى أرجاء النعمة) .

أما أينشتين الذى أجمع أهل الرأى على أنه عبقرى من الطبقة الأولى ، وأحد عظماء التاريخ العلمى ،فإن بطء نموه فى طفولته ، وتأخره فى النطق عن المعتاد ، وما لوحظ عليه من ضعف فى عقله ، جعل والده يغدق عليه الهدايا واللعب . . وكان يميل إلى الآلات الموسيقية ، واشتد ولعه بالكمان وعزف عليها . . وهكذا فقد نشأ لهذه الأسباب وهو يعيش منفرداً لا يختلط بالأولاد فى سنه ، وفجأة نظم أينشتين أناشيد

فى مدح العزة الإلهية والدعاء والاستغفار . . ثم إذ به يلج ميادين الطبيعة والرياضـــة ويقول عن ذلك : (كأن عاصفة قد انطلقت فى رأسى) .

وقصص اكتشاف المخترعات والوصول إلى النظريات العلمية تؤكد أن ما وصل إليه معظم العلماء إنما كان عن طريق الإلهام ، إذ وجدوا وكأن هناك ما يوجههم إلى ما وصلوا إليه إما بالاستفهام أو الإلقاء أو توجيه النظر ، فالعالم الـكبير نيوتن الذى قال عنه فولتير : (لو اجتمع جميع نوابغ العالم لـكان نيوتن فى مقدمتهم) وقال عنه جينز (إنه أعظم رجال العلم على الإطلاق) أما أينشتين فقال عنه (كل ما تم فى علم الطبيعيات النظرى بعده لم يكن سوى نمو طبيعى لآرائه) يقرر التاريخ أنه كان جالساً ذات يوم تحت شجرة تفاح فسقطت تفاحة أمامه . . كما سقطت قبل ذلك عشرات المرات تفاحات غيرها أمامه وأمام غيره . . ولـكنه يجد فجأة فى داخله من يسأله ، ما الذى أسقط هذه التفاحة إلى الأرض ولم تسقط إلى أعلا مثلا ؟ .. ثم لماذا تسقط التفاحة أسرع من ورقة الشجرة ؟ . . فـكان ذلك سبيل اكتشاف الجاذبية بقوانينها ومقرراتها، وكانت الجاذبية أساس علم جديد فى ميدان الطبيعة.

والسير رونالد روس الذى قهر بعوضة الملاريا ، أمضى أعواماً

طويلة فى تشريح ملايين البعوض حتى يوم ٢١ أغسطس عام ١٨٩٧ حين أحضر له جامع البعوض ١٢ بعوضة جديدة قام بتشريحها وامتحانها تحت الميكرسكوب ولكن لم يعثر على جديد يسترعى نظره ، فكيف إذن تنتقل الملاريا بالبعوض ؟ فوجد فجأة واليأس يأكل قلبه بعوضة على جدران غرفته تقف وقفة مغايرة أكدت له أنها من نوع لم يمتحنه من قبل ، ويقول فى مذكراته : (كان التشريح كاملا ففحصت الأنسجة بعناية وكأننى أبحث عن كنز مدفون فى خرابة ، ولكن لاشىء ... ! إن البعوضة الجديدة خيبت أملى نهائياً فلابد من خطأ فى النظرية ولم يعد سوى نسيج المعدة الذى لم يفحص بعد ففحصت خلاياه بلا فائدة ولكن ملاك القدر وضع لحسن الحظ يده على رأسى لأرى دائرة صافية صغيرة جلية جلاء غير عادى لايمكن أن تكون خلية ، فأدخلت قدراً أكبر من النور بلا هدف وفتحت حدقة الميكرسكوب ، وغيرت ضبط العدسة ، فرأيت مجموعة من حبيبات صغيرة سوداء كالحبر . . إنها طفيليات الملاريا) . . وهكذا اكتشفت بعوضة الملاريا ، ومهد ذلك السبيل إلى منع الملاريا ومعالجتها ، ويعتبر البعض أن ذلك أعظم عمل قام به الإنسان فى عصرنا الحاضر .

وبعض العلماء يعترفون أنهم قد حصلوا على اكتشافاتهم العلمية بعد أن رأوها فى أحلامهم ، أو ألقيت إليهم فى نومهم، فالطبيب العالمى

بانتنج الذى يرجع إليه فضل اكتشاف الأنسولين الذى يعالج به مرض البول السكرى بعد دراساته الطويلة الكثيرة على الكلاب ، وملاحظاته على البنكرياس وبعض الخلايا الموجودة به ، أجرى تجارب عديدة على الكلاب ولكن باء بالفشل والفشل الذريع . وفى ليلة أجهد فيها نفسه فى البحث فلما أوى إلى فراشه نام نوماً مضطرباً وفى الساعة الثانية بعد نصف الليل هب من سريره وهو يستمع إلى قول يتردد فى أذنه فدونه فى مذكراته ، وهو يغالب النوم بالنص (اربط قناة البنكرياس فى الكلب ثم انتظر ستة أسابيع إلى ثمانية حتى تضمر ثم استأصل بقيتها وأصنع منها خلاصة) . . وبعد أن دونها نام إلى الصباح ، فذهب إلى مكلود رئيس قسم الفسيولوجيا فى كلية الطب بجامعة تورنتو الذى استمع إليه وهو يضحك مما يعتقد أنه أضغاث أحلام ، أو أحلام متعب مكدود . . فلما علم أن بانتنج يريد أن يبيع عيادته ليجرى هذه التجارب . . وافق مكلود بدون اقتناع بصحة ما سمع ، وسافر فى أجازة ، وترك بانتنج ليجرى تجاربه على عشرة كلاب ، وكان يوم ٢٧ يوليو ١٩٢١ يوماً مشهوداً فى عالم الطب ، إذ نجحت تجارب بانتنج كما سمعها تتردد فى أذنه وهو فى منامه .

وما أكثر ما قرأنا اعترافات علماء بأنهم توصلوا إلى ما عجزوا عن

الحصول عليه . . بعد نومهم . . فيقول الدكتور جونسون فى كتابه (المسألة الكبرى) : إن دى ليفد الذى كان موسيقيا بارعا وسبب شهرته لحن (السماء) وكذلك لحن (أغنية العميان) هـذان اللحنان ألفهما وهو نائم نوما عميقاً وأضيفت لهما الألفاظ فيما بعـد باللغتين الإنجليزية والهولندية . والعلامة الرياضى الشهير هنرى بونكاريه حاول غير مرة أن يستكشف قانوناً عاماً لحل مجموعة معادلات جبرية ولم يتمكن من ذلك إلا بعد أن رأى الحـل مكتوبا تفصيلا فى نومه . وكذلك الدكتور جيمس جريجورى الفلكى الرياضى الاسكتلندى حصل على أبرع آرائه العلمية خلال أحلامه ، ويحدث لنا جميعاً أن نصل إلى حل ما نعجز عنه فى حلم أثناء النوم أو فى حلم يقظة .

فهل هناك شك بعد ذلك فى أن مصدر العلم هو الله سبحانه وتعالى ؟ . .

والملاحظات التى أثبتها العلماء على الأطفال الذين لا يمكن أن يكون لديهم أى قدر من العلم أو المعرفة ، وتصرفاتهم تطابق أعلى درجات العلم ، بل تسبق العلم ، إنما تؤكد أن الله وحده هو مصدر العلم . فى كتاب (صناعة الطب) الصادر فى نيويورك نجد النص الآتى : (يقص الدكتور كرت رشتر الأستاذ بكلية الطب بجامعة

جونز هوبكنز قصة طفل عمره ثلاث سنوات ونصف سنة أدخل المستشفى لعلاج تدرن الغدة الكلية وهو مرض قاتل . وكان من عادة هذا الطفل أن يأكل ملء اليد من ملح الطعام شأنه فى ذلك شأن طفل يحب السكر أو المربى ، فلما أدخل المستشفى منع من أكل الملح ، وأعطى وجبات طعام المستشفى ولكنه لسوء الحظ لم يلبث أن مات ، ويبدو الآن أن هذا الطفل كشف بنفسه ما قضى العلماء التجريبيون سنوات طويلة فى كشفه ، وهو أن المرضى بخلل فى تلك الغدد يفيدون كثيراً من إضافة مقادير كبيرة من الملح إلى طعامهم) . .

وإذا كان هذا الطفل — وأمثاله كثيرون فى كتب العلم — قد أثاروا دهشة البحاث وأكدوا أن العلم إنما هو فيض يتلقاه الإنسان من خارجه . . فكيف عندما يقرر العلماء والبحاث أن الحيوانات والطيور قد وصلت إلى درجة من العلم سبقت به الإنسان . . أيكون عقلها وتجاربها هو مصدر علمها ؟ .

ففى كتاب (صناعة الطب) نجد ما نصه : (دلت الفيران البيضاء التى أجرى عليها الدكتور رشتر تجاربه على أنها من طبقة الموهوبين من رجال العلوم إذ برهن الدكتور على أنها حين تأكل طعاما ثابتا من خليط الكاربوهيدريت والبروتين والشحم مع شىء من المعدنيات

والفيتامينات تسير سيرا مطردا فى نموها وازدياد وزنها ولكنها حين تأكل هذه المواد غير مخلوطة فإنها تختار ما تحتاجه لسير نموها وتطورها المعتاد . وأعجب من ذلك أن الفأر الطبيعى يستهلك من الملح مقدارا ضئيلا نسبيا على حين أن الفأر الذى أزيلت غدده التى فوق الكلى بعملية جراحية يزيد لنفسه فى سرعة ما يأخذه من الملح إلى القدر الذى يكفى لاستمرار حياته ، فإذا أجريت نفس هذه العملية على فيران أخرى ووضعت فى أقفاصها ماتت هذه الفيران إذا لم يسمح لها إلا بالقدر المعتاد من الملح فى طعامها . أما الفيران التى تزال غددها المجاورة للدرقية فإنها تأكل كفايتها من الكالسيوم لتبقى على حياتها ، وعلى سلامتها من مرض التتنانوس ، ولو أن الفيران استطاعت أن ترجع إلى المؤلفات الطبية لوجدت أن الكالسيوم يعطى صغار الأطفال المصابين بمرض التتنانوس ، كما يعطى الكبار الذين أزيلت غددهم المجاورة للدرقية بسبب تضخم غدة العنق ، والفيران التى تطعم خلاصة الغدة الدرقية تنمو عندها شهية غير عادية لمحلول مخفف من اليود وهو الدواء المجرب للمرضى بالنشاط الزائد فى الغدد الدرقية) ...

والأمثلة الواضحة والمشاهد المألوفة التى تثبت علم الحيوان والطير كثيرة ، فهذه الهندسة التى يبنى النمل بها مساكنه ، تعتبر أصعب ما

يمكن تنفيذه من أشكال البناء ، إذ يقول الدكتور ريد : إنه لا يوجد سوى ثلاثة أشكال ممكنة للغرف تجعلها كلها متساوية ومتشا كلة دون أن تكون هناك مسافات بينها لافائدة منها وهذه الأشكال هى المثلث المتساوى الأضلاع والمربع والمسدس المنتظم والمسدس أصلحها وأصعبها فى التنفيذ وهو ما يعمله النحل ، وقد درس العالم ماك لورين الزاوية التى تلتقى عندها السطوح للحصول على أعظم اقتصاد ، فوجد أنها هى نفس الزاوية التى يلتقى عندها فعلا سطح أرض غرفة النحل ولذلك نجد العالم مترلنك يقول فى كتاب عن حياة النحلة : (لو أن أحداً من عالم آخر هبط إلى الأرض وسأل عن أكمل ما أبدعه منطق الحياة لما وسعنا إلا أن نعرض عليه مشط الشمع المتواضع الذى يبنيه النحل) .

والنمل تلك الحشرة الصغيرة التى كثيراً ما نجدها تقتحم علينا مخازننا بل مساكننا وأرضنا الزراعية والتى يعتقد أنها تمثل حياة صغيرة تناسب حجمها ، وإذا أدهشنا ما نراه من تصرفاتها . أسرعنا لنسند ذلك إلى الغريزة . . هذا النمل قرر العلماء بشأنه ما يؤكد أنه يتمتع بعقل وإدراك . . وأنه على شىء من العلم إذا قيس بحجمه لوجدنا أنه يفوق بعقله وعلمه كثيراً بل وكثيراً جداً من الكائنات التى تتمتع بالذكاء والمعرفة . . فقد انتقل النمل من حياته الترابية التى كانت طريقة

معيشته الأصلية إلى حياة شجرية ، ثم انتقل إلى النظام الحشرى الذى كان يتغذى فيه بلحم الحشرات الأخرى ، ثم إلى نظام السعى وراء القوت ، وأخيراً إلى المرحلة الزراعية والنباتية ، ويقول موريس مترلينك إن هذا الإرتقاء شبيه بارتقاء الإنسان الذى نشأ صياداً أول الأمر ، ثم راعياً فحارباً فمدافعاً وأخيراً عاملا . . وبديهى أن تطور وسائل معيشة النمل إنما يشير إلى وجود الإدراك والتمييز ، فإنه تطور فى العمل المعيشى وليس تطوراً فى الشكل أو الأعضاء حتى يكون لادخل فيه للحشرة .. ويعتمد العلماء فى تقرير تمتع النمل بالعلم على الدراسات الطويلة التى قام بها العلماء عن طريقة المشاهدة فيقول العالم هيوبر (إننا لا نكاد نرى النمل وهو ينفذ عملا حتى ندرك أن فكرة ما تتبلور فى ذهنه ، وأنه يجرى تنفيذها . ومن ثم فما تكاد نملة تجد عودين متقاطعين من الحشيش فوق العش يصلحان لإنشاء عش أو عدد قليل من أعواد القش تصلح كجوانب أو أركان لمثل هذا العش حتى تبادر إلى فحص مختلف أجزائها أولا ، ثم تجلب المواد التى قد تحتاج إليها فى عملها من جميع الاتجاهات) لذلك نجد النظام المعمارى العجيب فى أعشاش النمل ، وشكل العش فى النوع الواحد للنمل لا يختلف ، وإن اختلفت أنواع الأعشاش على حسب أنواع النمل ، فإنها تنتمى جميعا إلى أربعة طرز رئيسية ، ويحتوى العش عادة على عدد من الطوابق فوق سطح الأرض يماثل عدد ما تحت

الأرض . . وتصل عدد الطوابق فى بعض أنواع النمل إلى عشرين طابقا .. فالتكرار الذى لايختلف فى الأعشاش ، والتصميم المعمارى العجيب ، واستعمال كل طابق فيما يتحقق معه أغراضه بالنسبة للحرارة والرطوبة والتهوية وتوزيع مخازن الغذاء وصالات الاجتماع وغرف تربية الصغار .. إنما يشير إلى علم و إدراك ومعرفة . ومما يؤكد هذا الرأى أيضاً ما قرره العلماء من أن النمل يملك جيوشا منظمة ، وأن كل نوع من أنواع الحروب التى يمارسها البشر موجود فى دنيا النمل ، كالحرب المكشوفة ، والهجوم الشامل ، والتعبئة العامة، وحرب الخنادق، والمفاجآت، وخطط التسلل، وحرب الإبادة الشاملة، والحصار والاقتحام ، والهجوم والتقهقر والانسحاب الاستراتيجى. إلا أنها تتميز بميزتين هامتين وعجيبتين : الأولى احترام ملكية الغير احتراما كاملا ، والثانية تقديم الطعام للنمل الجائع ، و يقول العلماء : إن النملة تكون فى أشد حالات سعادتها وانشراحها عندما تعطى لغيرها بعض الطعام من داخل معدتها ، إذ تخرجه لها فتصبح واضحة السعادة ، بل إن النملة لاتستطيع مقاومة تضرعات العدو الجائع .. فتقدم له حاجاته من الطعام قبل احتدام القتال .. وكل تصرفات النمل فى كافة أحواله إنما تشير إلى علم ومعرفة .

هذا مايقرره العلم التجريبى والمشاهدات النظرية والأبحاث العلمية..

أما القول الفصل فهو ما قرره القرآن الكريم من أن الله سبحانه وتعالى هو مصدر العلم .

فآيات القرآن الكريم تقرر أن علم الإنسان بدأ بما علمه له الله سبحانه وتعالى، إذ علم آدم أول البشر الأسماء كلها بنص الآيات الشريفة :

(وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ .قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ.)

وفى هذه الآيات أيضا إقرار من الملائكة بأنه لا علم لهم إلا بما يعلمهم الله . ويقرر القرآن الكريم كذلك فى مختلف آياته أن كل ما وصل إليه الإنسان من العلم إطلاقا إنما هو من الله سبحانه وتعالى مثل الآية الشريفة

(اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ .الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ .عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ .)

وان الله سبحانه وتعالى علم الإنسان البيان كما أنزل له القرآن بالنص الشريف :(الرَّحْمَٰنُ . عَلَّمَ الْقُرْآنَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ. عَلَّمَهُ الْبَيَانَ) .

واختص الله سبحانه وتعالى بعض الرسل والأنبياء بأنواع من العلم ، كما اختصهم بالرسالات والنبوة ، فعلم جل شأنه سيدنا يوسف تأويل الأحاديث بالنص الكريم (رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ) وعلم سبحانه وتعالى سيدنا داوود صناعة الدروع بنص الآية الشريفة : (وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ) وعلم سبحانه وتعالى سيدنا نوح صناعة السفن بنص الآية الكريمة : (وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ) . وهكذا لايعلم الإنسان شيئاً إلا ما علمه له الله سبحانه وتعالى ، كما تخاطب الآية الشريفة سيد البشر أجمعين وخاتم الرسل والنبيين ، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فتقول : (وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ) .

وكذلك ما وصلت إليه الحيوانات والطيور والحشرات من علم فإنما ذلك وحي الله سبحانه وتعالى ، وذلك بنص الآيات الشريفة : (وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ

١٠١٣

الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ . ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) .

فمصدر العلم لا شك هو الله وحده جل شأنه الذى يقول :

(وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ)

فإذا كان مصدر العلم هو مصدر الدين

فهل يعارض العلم الدين و يناقضه ؟ . .

أم لا بد يتفق معه ويؤيده ؟ . .

لا تعارض بين العلم والدين

إذا كان العلم يتفق مع الدين فى الهدف ، ويرتبط معه فى المصدر ، فكيف إذاً تتردد الأقوال أحياناً بأن العلم والدين لايتفقان ، ولماذا يظهر العلم أحياناً وكأنه يعارض الدين ؟ .

إننا إذا تتبعنا تلك الأقوال التى تشير إلى معارضة الدين للعلم ، وعدم تأييد العلم للدين ، نجد أنها تروج وتنتشر فى أزمنة الإلحاد . بل إنها تعتبر القمة التى ينطلق منها دعاة الإلحاد فى نشر معتقداتهم إذ ليس هناك من دليل واحد يمكن للملحدين أن يستندوا إليه فى إثبات رأيهم ، ولا يوجد برهان يؤكدون به أقوالهم ؛ فعندما تدمغهم الأدلة القاطعة الواضحة على وجود الله ، وينشر العلماء بعض ما وصلوا إليه فى إثبات وجود الله عن طريق البراهين العلمية أو العقلية أو المنطقية أو الشواهد النظرية أو غيرها من الأدلة التى لايمكن أن توضع تحت حصر ، لايجد الملحدون مايمكنهم معه من الاستمرار فى ضلالهم إلا إثارة الشائعات بأن العلم الذى لايمكن الشك فيه ، لأنه حقائق تجريبية ، وشواهد حسية ، وقياسات مادية ، إنما يعارض الدين ، فإذا استوضحهم الناس كانت ردودهم إن الدين إنما هو معتقدات غيبية وآراء فلسفية ، لايمكن أن تخضع للتجريب أو القياس ، بل إنها إذا قورنت بما نعرفه ونعهده فإنها تخالفه ولا توافقه ، وحتى الآن لم يصل هؤلاء الملاحدة إلى حقيقة واحدة علمية تنافى الدين أو تعارضه .

وقد ينشر البعض هذه الأقوال دفاعا عن خطأ فى رأيهم يظنونه صوابا ... فهؤلاء الذين لايؤمنون بالله يشعرون فى قرارة أنفسهم أنهم يخالفون الإجماع ، ويعارضون الطبيعة ، وأنهم يعتقدون بما لا يعتبر شيئا . . فهؤلاء الذين كفروا بالله .. ترى بأى شىء آمنوا ؟ . . ومهما يكن مايؤمنون به ؛ فإنه لا يعتبر شيئا إذا كان غير الله هو ما يؤمنون به . . . مثل هؤلاء وهم يشعرون بأنهم قد شذوا عن الناس ، يحاولون خلق الأعذار التى تبرر ما هم عليه ، فيتخذون من ترديد الأقوال التى تثير الشبهة حول موقف العلم من الدين ذريعة لتبرير موقفهم من سوء ما يعتقدون .

وكذلك من الأسباب التى تدفعهم إلى ترديد هذه الأقوال رغبة البعض فى اكتساب شهرة على حساب مخالفة الإجماع ، حتى ولو كان ذلك باعتناق آراء يعتقدون فى سريرتهم بفسادها .

كما أن بعض الدول تدعو إلى تشجيع مثل هذه الآراء لإثارة الشك فى الدين ، إذ تعتمد هذه الدول فى سياستها على هدم الدين ، باعتبار أن الدين عموما سيتنافى مع مارسمته هذه الدول لنفسها من سياسة فى الحكم ، فالدكتاتورية ، وحكم الفرد المطلق ، واستغلال الطبقات الكادحة ، والتفرقة الطائفية ، والخلافات العنصرية ، ومحاربة

قيام الفرد : كل هذا ومثله يعارضه الدين ، فلا يمكن لدولة سياستها تنافى الدين أن تقوم إلا إذا هدمت الدين تماما ؛ وأول خطوة فى سبيل ذلك هو إثارة الشك فى نفوس الناس فى الدين ، ولا يجدون إلا إشاعة معارضة العلم للدين ، وحرب الدين للعلم والعلماء ، لذلك نجد أن من شعارات مثل هذه الدول مانصه: (إن كافة المذاهب الدينية تنضح حقدا للعلم والمعرفة ، والدين يرفع جهل المرء إلى مرتبة التقوى ، ويقول الدين إن الله سيكافىء الناس لا على أساس معارفهم ، ولكن على أساس إيمانهم ، إن المغزى الاجتماعى لمثل هذه النظريات واضح كل الوضوح ، الرأسماليون محتاجون إلى عبيد جهلة ووضعاء ، والدين يحرص على صنع مثل هؤلاء العبيد بالذات . إن الدين يخنق كل بحث علمى وكل محاولة لمعرفة العالم. إنه يصنع قوما لا إرادة لهم ، قوماً لا يؤمنون إلا بالمعجزات). لهذا نجد أن الأقوال التى تحمل هذه الآراء تصدر أكثر ماتصدر عن الدول التى رسمت سياستها بما تتنافى مع مقومات الدين وشرائع الله . ولذلك حجبت الدين عن الناس وحتى يظل الدين بعيداً عن أى محاولة يقوم بها أهلها لتفهمه أو دراسته توالى هذه الدول تأييد نشر كل ما يثير الشك فى الدين وأهمه معارضة العلم له . . . والدعوة إلى كل ما يؤيد فكرة المادية . . . ويحارب الروحية

وقد اشتهر لفيف من الناس أطلقوا على أنفسهم اسم الماديين ، قاموا

بحملات منظمة للدعوة إلى المادية المتطورة ، وأنكروا ما وراء الطبيعة ، وحملوا على الدين حملات شعراء ، مثل مولسكوت وهو فسيولوجي هو لندى ظهر فى منتصف القرن الثامن عشر ، وكان شعاره (لا فكر بغير فسفور) لإثبات أن الذكاء والعقل والفكر والتفكر إنما هو من الماديات ومما ينحدر من أصل مادى ، وهو الفسفور أصلا ، وكذلك كارل فوجت وهو عالم حيوان كان مما يردده فى كتاباته : (الفكر بالإضافه إلى الدماغ كالصفراء بالإضافه إلى الكبد) .. ونسى أن الصفراء مادة أمكن عزلها ، وهى موجودة فعلا .. أما الفكر .. فحتى الآن لا يمكن أن يقول بذلك عاقل ، وأعتقد أنه لن يقولها إلى أبد الآبدين .. ومن هؤلاء أيضاً بوخنر وهو طبيب دون كتابا اسمه (القوة المادية) و يقرر فيه أن المادة مستودع جميع القوى الطبيعية وجميع القوى التى تدعى روحية وكذلك ارنست هكل وهو أستاذ لعلم الحيوان ارجع الإنسان إلى الحيوان قبل داروين وقد جاء عنه فى كتاب تاريخ الفلسفة الحديثة مانصه (كتابه المشهور « ألغاز الكون » يعرض المادية الآلية فيقول إن الموجود الضرورى الوحيد هو المادة وأن الحياة ترجع إلى أصل واحد هو المونيرا التى تركبت اتفاقا من الآزوت والأيدروجين والأكسجين والكربون ثم تطورت على التوالى حتى تكونت جميع الكائنات الحية و يعد هكل اثنتين

وعشرين حلقة بين الموثيرا والإنسان ويصفها مستعينا ببقايا الأحياء فى طبقات الأرض ، ولكى يؤيد التدرج فى التطور يعدل فى بنيه بعضها ويسد الفراغ بتمثيل كائنات حية لم توجد . ولوأن واحدا من المؤمنين أراد أن يؤيد الدين بتزوير من هذا القبيل لما فرغ الملحدون من التهكم والسخط) . وهذا كارل ماركس زعيم الشيوعية العصرية يقول : (إن الدين أفيون الشعب يجب منعه عنه لكى ينفض التسليم والخنوع وينهض للمطالبة بحقه)

وقد تنتشر هذه الآراء لقصور العلم عن إدراك بعض الحقائق التى جاءت بها الأديان ، ومحاولة الإنسان عرض غيبيات الأديان على مقاييس العلم . . ومحاولته كذلك فهم غير المحسوس والملموس بالعقل البشرى . . فطبيعة خلق الإنسان تجعله يؤمن بالحصر والتجسيد . . فهو يعلم أن لكل شىء بداية وله نهاية . . وكل موجود لابد أن يكون له وجود ملموس محسوس . . فعندما يضع غيبيات الدين موضع الدراسة كما تعود . . يرى مثلا أن الآخرة ليس لها نهاية فإذا أطال التفكير عجز عقله الذى تعود على الإيمان بأن لكل أمر نهاية . . أن يستوعب عدم نهاية الآخرة . ثم إذا فكر فى روحه هو . . التى هى أصل حياته وسبب إحساسه . . آمن بوجودها . . لأنها هى هو . .

ولا وجود له بغيرها . . وإذا رأى غيره عند الموت وجد أن جسده كما هو . . ولكن شيئاً ما . . لابد غادره . . جعله . . كأنه والعدم سواء . . فما هوهذا الشيء . ؟ لوفكر بعقله .. وحاول قياس هذه الروح بما اعتاد أن يقيس به غيرها من أمور دنياه . . لوجدها تنافى وتخالف ما عرف . . فأين طولها . . وعرضها . . وارتفاعها . ووزنها وظلها ... وتركيبها الكيماوى . . والعضوى .. وكيف لا يكون بها مثل هذه المواصفات . وتكون موجودة . . وعندما يفكر فى يوم الحساب . . كيف تجتمع مثل هذه الأعداد التى لايمكن حصرها منذ أن وجدت الأرض . . إلى أن تقوم الساعة . . . أى ساحة . . ستجمعهم ؟ . . وكيف يكون حسابهم ؟ . . ولو نظر الإنسان إلى السماء التى ظل طول حياته يعيش تحت سقفها . . ورأى هذه الأعداد من النجوم والكواكب التى تزيد يقيناً على عدد أفراد الجنس البشرى . . من يوم أن خلق إلى أن ينتهى . . وحجم الواحدة منها . . لا يمكن أن يوضع موضع المقارنة مع الإنسان فكم مثلا حجم الأرض بالنسبة لحجم الإنسان الذى يعيش عليها ...؟ وإن أقل حجم من نجوم السماء وكواكبها بالنسبة لحجم أرضنا قد يكون هونفس النسبة بين الأرض والإنسان ... فكم ياترى تكون حجم هذه الكواكب والنجوم ؟ وكم يكون عددها ؟ . . ترى أى ساحة . . احتوت هذه

الأجرام . . التى نراها . . والتى لا نراها . . بهـذه الأحجام . . وكل منها يسير بسرعة مذهلة . . ولاسبيل الى أن يقترب نجم بآخر . . أو يكون على بعد منه يسمح برؤية الواحـد للآخر . .

ولو تدبر الإنسان فى اختلاف شكل الواحد عن الآخر من يوم أن خلق الإنسان... وعدم اتفاق أى إنسان مع الآخر مهما كان موضعهما .. وموعد ولادة كل منها .. لافى الشكل ولا فى البصمة ولا فى أجزاء الجلد .. فكل إنسان يختلف عن الآخر .. فما أسهل الحساب.. وما أيسره إذا تفكر الإنسان فى ذلك . . ولـكن نظر بعض الناس إلى زاوية واحدة يجعل تفكيرهم عقيماً .. وقولهم سقيما .

وكذلك فإن من أسباب انتشار هذه الأقوال ظهور نظريات عن الخلق والحيـاة .. تعارض ما تقول به الأديان ، وبالرغم من أن أصحاب هـذه النظريات يعترفون بخطئها تصريحا أو تلميحا ، ويعلنون بعـدها مخالفتهم لها ، أو على الأقل عدم قيام الدليل على صحتها ، فإن البعض سعيا وراء الجديد حتى ولو كان خطأ يرددون ويناقشون ويؤيدون مثل تلك النظريات التى تبرأ أصحابها منها ، أو على الأقل صحح تلاميذهم من بعدهم آراءهم ؛ فهذا مثلا تشارلس داروين وجد أثناء رحلة بحرية أن الأنواع الحية ، وبخاصة الحيوانية منها تتشابه تشابها عميقا من حيث بنية الجسم ، وتتفرع إلى أصناف متفرقه على حسب بيئتها ؛ فافترض

أن كل الأنواع الحالية من الأحياء يمكن أن تكون ذات أصل واحد ، أو بضعة أصول تتنوع طبقا لقانون الانتخاب الطبيعى ، أو بقاء الأصلح لتحقق الحكمة الأولى من فرضه التى تقول بالصراع فى سبيل البقاء ، وإن بعد هذا القانون توجد قوانين ثلاثه ثانوية هى قانون الملاءمة بين الحى والبيئة الخارجية . وقانون استعمال الأعضاء أو عدم استعمالها تحت تأثير البيئة بحيث تنمو الأعضاء أو تظهر أعضاء جديدة تبعا لحاجة الكائن فى بيئته ، وقانون الوراثة ، وهو يقضى بأن الاختلافات التى ظهرت على الكائن تنتقل إلى ذريته ، وبذلك فإن داروين نادى بالآلية فى الكائن بحيث لا دخل للكائن نفسه أو لأى قوة علمية فى شأنه ، إنما هى البيئة وعلى ذلك فإن الأتفاق الأعمى والصدفة الخرقاء هما الأصل فى حياة الكائن ، وهنا أراد أن يسحب ذلك على النبات والحيوان فقط وترك الإنسان إلى أن أصدر كتابه عن تسلسل الإنسان فقال : إن الفرق بين الإنسان والحيوان إنما هو بالكم أو الدرجة فقط ، وأن المسافة بين القوى الفكرية لحيوان من أدنى الفقريات والقوى الفكرية لقرد من القردة العليا أكبر من المسافة بين القوى الفكرية فى القرد وبينها فى الإنسان ، وقال بوجود عقل للحيوان وإنه امتداد للحس .. وعندما شاع أن نظرية داروين هذه والتى تقول : إن الإنسان قد نشأ من فرع مشترك بينه وبين القردة الراقية إنما هى نظرية مادية الحادية ، وقد كان داروين مؤمنا بالله لم يلبث

أن أعلن بصراحة العلماء المخلصين لعلمهم بأن هناك (حلقة هامة مفقودة فى السلسلة العضوية التى تصل مابين الإنسان وأقرب الحيوانات الحية إليه) . . وأنه يأسف أشد الأسف إذ استعمل لفظ الخلق فى كتابه ، وكان ذلك مجاراة للرأى العام ، وصرح بأن الحياة لغز من الألغاز ، وأن ما فى العالم من نظام يشهد بعناية إلهية ، وأنه قد اختار لنفسه مذهب اللاأدريين فهو (لاأدرى) لايقول بالعناية ولا بالصدفة ، وأن الكلمة الأخيرة عنده هى (أن المسألة خارجة عن نطاق العقل ، ولكن بوسع الإنسان أن يؤدى واجبه) وكان آخر ما كتبه (يستحيل على العقل الرشيد أن تمر به ذرة من الشك فى أن هذا العالم الفسيح بما فيه من الآيات البالغة والأنفس الناطقة المفكرة قد صدر عن مصادفة عمياء ، لأن المصادفة لاتخلق نظاما ، ولا تبدع حكما ، وذلك عندى أكبر دليل على وجود الله) وقد أعلنت معظم الجامعات العلمية فى سويسرا وأمريكا وغيرها ، أنه قد ثبت خطأ نظرية داروين فى أصل الأنواع ، وأن الإنسان منذ عشرة ملايين عام يعيش منفردا وبعيداً جداً عن أى سلسلة تغاير الإنسان أو تخالفه . . وبالرغم عن ذلك فقد ظلت نظرية داروين تتردد بين الناس طويلا وكثيراً . . وكان وجه الخلاف الذى تثيره بين العلم والدين أن الأديان كلها تقول بأن الإنسان خلق خلقاً مستقلا عن غيره ، وأن آدم هو أصل البشر على الأرض .

وهذا توماس هكسلى الذى أثار أكبر ضجة ومهاترة ، وحمل لواء الحرب بين العلم والدين لفترة طويلة .. وهو الذى سبق داروين بالقول بنظرية التطور وتطبيقها على الإنسان .. ظل مـدة طويلة يدرس كيف بدأت الحياة فقد كان من الشائع الاعتقاد بالتولد الذاتى حيث يشاهد الناس الحشرات تظهر فى اللحم الميت ، وكذلك تتولد داخل الأوانى المغلقـة فلما أثبت الطبيب الإيطالى فرانشسكو ردى ، أن الحشرات لاتظهر مطلقاً فى اللحم إذا غطى بقماش رقيق ، استمر دليل التولد الذاتى قائماً على مشاهدة وجود الديدان المعوية فى الإنسان ، حتى ظهر تندول وباستور وقضى على هذه الخرافة قضاءاً تاما إذ عرف أن هـذه الديدان انما تنشأ عن بويضات يتناولها الإنسان على هيئة ميكروب أو جراثيم فى طعـامه أو شرابه ، وتقدمت الأبحاث الى أن عرف أن البرتوبلازم هى مادة الحياة الأساسية ، وأمكن معرفة مكوناتها ولما اكتشف بعضهم وجود مادة هلامية فى قاع البحار اعتقد هكسلى أنها حلقـة الانتقال من الجماد الى المادة الغروية المعروفة باسم البروتوبلازم ونادى بنظريته بخلق الحى من الجماد ، ولما اتضح أن هذه المادة انما هى طين به رواسب مـواد عضوية ، اعترف بذلك فى دعابة لطيفه أثنـاء مـؤتمر علمى بشفيلد فى عام ١٨٧٩ وأعلن أسفـه لأنه كان السبب فى تضليل كثيرين اعتمدوا على شهرته واستشهدوا به فى تأييد التولد

الذاتى . . وللأسف مازال البعض فى سبيل الظهور أمام الناس بمظهر الباحث العالم يردد بعض ما كان قد ورد فى كتب هكسلى التى تعتبر نظريات خاطئة أعلن صاحبها ذلك ؛ ونظرية التولد الذاتى هذه إنما تعارض الدين . . . أى دين . . . وكل دين فى أساسه .

ولقد حارب بعض رجال الدين فى العصور القديمة العلم خوفا على سلطانهم الذى كانوا يفرضونه على الناس ، فأظهروا أن العلم لا يتفق والدين إذ يقرر التاريخ أن العلم والدين كانا دائماً متداخلين متوافقين يؤيد كل منهما الآخر ويسانده و يعاضده منذ أن عرف الإنسان التاريخ فتدل الآثار على أن كل عالم اشتهر فى فروع العلوم المختلفة ، إنما كان من دعاة الدين ، بل وكان يتخذ الدين سبيل البحث العلمى ، والعلم سبيل تأييد الدين ، إلا أن رجال الدين فى مثل هذه الآونة القديمة كانوا ينظرون إلى العلم والعلماء نظرة التوجس والخوف على مراكزهم فى الدول ولعل أول حرب بين العلم والدين يرويها التاريخ تلك التى كانت بعد وفاة إخناتون إذ يقول التاريخ : إن رجال الدين وجدوا أن الفرصة سانحة لإعادة الأمور إلى أيديهم فرفضوا عقيدة التوحيد التى نادى بها اخناتون، وأعادوا أساطيرهم التى تدعم أمجادهم ، وتثبت أركانهم ، واسترجعوا سلطانهم ، وأظهروا أن العلم الذى انتشر إنما يجافى الدين ، وإن يكن

الدين الذى يبشرون به و يتمسكون به إن هو إلا تلك الخرافات التى يروجونها ، والتى هى فى الحقيقة بعيدة كل البعد عن الدين .. أى دين ، وكان هذا أول قول فيما يعرفه التاريخ بمعارضة العلم للدين ، ولكن أى دين هذا هو الذى كان يعارضه العلم ؟ . . لقد كانت النتيجة الحتمية كما يقول المؤرخ سارتون فى تاريخ العلم : (لقد تحجر الدين والعلم وأصبح التقدم فيهما صعبا إن لم يكن مستحيلا) . . ثم جاءت بعد ذلك العصور التى تربط العلم بالدين فمثلا هذا فيثاغورس الذى تعتبر حياته وكأنها الأساطير ، والمؤسس لمدرسة علمية تعتبر قمة العلم فى القرن الخامس قبل الميلاد . . يجمع بين العلم والدين و ينادى بالعلم والتصوف فيقول عنه أرسطو (إن فيثاغورس اشتغل أولا بالرياضة والحساب ثم ظهرت نزعاته الصوفية) ونظريات فيثاغورس فى الهندسة والرياضة والفلك هى الأساس لكثير من النظريات الحالية . و يقول عنه المؤرخ سارتون : (إن فيثاغورس هو مؤسس العلم ومؤسس الدين فى الوقت نفسه فهو أول من قرر أن للعلم قيمة بقطع النظر عن نفعه لأنه أفضل سبيل للنظر والفهم وهو أول من جمع بين حب العلم والقداسة ، وهو من أجل ذلك إمام العلماء وشفيعهم فى جميع العصور ، وحامى ذمار المفكرين النظريين وأرباب التأمل) . . . فكل ما أشيع وقتذاك بمعارضة العلم للدين إنما كان سببه خوف رجال الدين على سلطانهم الكهنوتى حيث كانوا

يعتبرون انفسهم مصدر كل ما يحتاجه الإنسان من علم اودين . .

ومن ضمن الأسباب التى يتردد بها القول بمعارضة العلم للدين تمسك بعض رجال الدين بمعتقدات ليست فى الدين ، فما أن وضح عدم صحتها حتى ازدادوا تعصبا وتمسكا بها ، فظهر وكأن العلم يعارض الدين . فقد كان المعتقد من زمن بطلميوس أن الأرض مركز الكون ، وأن السماوات بما فيها من الكواكب والسيارات والفضاء الذى لا يحد تدور جميعاً حول الأرض دورة كاملة كل يوم .. وظل العالم الفلكى كوبرنيكوس ثلاثين عاما يبحث ماقاله بطلميوس ويقارن بين هذا الرأى وما يراه من حركة الأجرام السماوية اليومية ، فهل يكون شأن هذه الحركة كحركة الأجسام التى نراها على الشاطئ وكأنها تتحرك إذا رصدناها من فوق سفينة تسير موازية للشاطىء فى ماء راكد ، وكذلك تظهر السفينة كأنها مستقرة لاتتحرك .. ثم أيد رأيه المخالف لرأى بطلميوس ما شاهده فى رصده للمريخ والاختلاف فى إشراقه ، ولكن كان من مقتضيات العقيدة الدينية حينئذ أن تكون الأرض موطن الإنسان هى مركز الكون ، وأن تكون كذلك ثابتة لاتتحرك ،فقال كوبرنيكوس : (إذا كان أرسطوطاليس وبطلميوس مخطئين فى القول بأن الأرض ثابتة ومستقرة ، فهما أيضاً على خطإ فى أنهما مركز

الـكون) .. ولـكن كان كوپرنيكوس أسقفا من أساقفة الـكنيسة فمضت سنوات وهو راغب عن طبع هـذا الرأى ونشره بالرغم من اعتقاده التـام بصحته ، ثم رفع كتابه إلى البابا برلس الثالث ، وقال فى مقدمته : (إذا وجدت أناس أخذوا على عاتقهم رغم جهلهم بالرياضيات أن يحكموا على هـذه الآراء وفقا لآية من الـكتاب المقدس شوهوا صفوها حتى يوافق هواهم ، فإننى لا أقيم لهم وزنا بل أحتقر حكمهم الأحمق ، و إننى لأرفع بحثى فى هذا الموضوع إلى قداستكم ثم إلى أعلام الرياضين ليحكموا فيه) .. ولم يمتد العمر بكوبرنيكوس طويلا إذ أصيب بشلل أقعده ثم مات بعد أن ظل هدفا للسخرية والازدراء . . ثم جاء بعده برونو وأعلن قبوله للنظام الـكوبرنيكى فعد ذلك منه خروجا على الـكنيسة ، فلجأ إلى جمهورية البندقية ولـكنه حوكم وحكم عليه بالسجن وبعد ست سنوات ، وهو يرفض أن يتزحزح ، رأى أولو الأمر أن السجن لا يكفى فى معاقبته فحـكم عليه بالموت حرقا ،وكانت آخر كلماته (إنكم وأنتم الحاكمون علىّ أشـد خوفا منى أنا المحـكوم عليه ، فقد كافحت وهذا كثير . أما النصر فبى أيدى القدر ، أما كيف يكون حكم القدر فالعصور المقبلة لن تنـكر علىّ — أيا كان المنتصر — أننى لم أخش الموت فآثرت الموت على حياة الجبن) . .

وهذا جاليلو الذى وجه أنظار النـاس إلى ما فى السماء عن طريق المناظر ونشر القوانين الخاصة بالأجسام الطافية ، واكتشف حلقات زحل ، وكتب فى كيفية تعيين خطوط الطول ، وكشف ظاهرة تذبذب القمر . . هـذا العالم كان من أنصار كوبرنيكوس ، لم يشفع له علمـه ولا ما اكتشفه ، عند رجال الدين فاستصدروا أمرا بطلبه إلى روما حيث قرر مجمع الـكرادلة اعتبار كتابات كوبرنيكوس محرمة ويعاقب قائلها وناشرها ومعتقدها ، وبذلك وجـد جاليلو نفسه مخيرا بين السجن والعذاب ، أو ترك آراء كوبرنيكوس وهى الحق كل الحق . . فآثر السلامة وسلم بما لا بد منه بد . . وبعد أن توفى البابا بولس الخامس وخلفه على الـكرسى المقـدس البابا اربان الثامن وكان من أصدقاء جاليلو ظن أن العهد الجديد سيكون عهد تساهل فوضع كتابا على نمط محاورة بين ثلاثة أشخاص ، أحدهما يمثل رأى كوبرنيكوس ، والثانى من أتباع أرسطوطاليس وبطلميوس ، والثالث مديرا للمناقشة ، وجعل الغلبة لرأى كوبرنيكوس فصودر هذا الـكتاب واستدعى للمحاكمة وأمام مجمع الـكرادلة حكموا بإعدام مؤلفاته ، ونظرا إلى كبر سنه واعتلال صحته وإعلانه لتوبته اكتفت المحـكمة بسجنه فى ديوان التفتيش طول عمره .. وخرج من المحـكمة وهو يقول كلمته المعروفة

(ومع ذلك فهى تدور) .. وظل سجينا إلى أن مات .... ولم تستمع الكنيسة إلى الرأى الذى أبداه الكردينال بلارمينو وفيه حل كل هذه المشكلة إذ يقول (لو كان هناك برهان حق على دوران الأرض وثبات الشمس إذن لتعين الحذر الشديد فى تفسير آيات الكتاب المقدس ، ولكان أحرى بنا أن نقول : إننا لاندرك معناها من أن نكذب ما قام عليه البرهان) .. وظلت الكنيسة تعارض هذا الرأى ، فيظهر العلم وكأنه يعارض الدين ، إلى أن عادت الكنيسة تؤيد رأى كوبرنيكوس بعد أعوام وأعوام . . . تبلبلت فيها الأفكار وتضاربت الآراء .. واشتد الصراع بين العلم والدين فيها .

وكذلك فإن ضمن الأسباب التى قد تظهر الدين وكأنه يعارض العلم ، وأن العلم ينافيه سبق الدين إلى إيراد حقائق قبل أن يصل العلم إليها فمثلا عندما نزلت الآيات الشريفة (وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ) ، (وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ) وقف العلم من هذه الآيات موقفا مضطربا ، فكيف تقول الآيات : إنه فى الإمكان أن يصبح الماء ناراً ؟ .. وكان العلم يؤكد أن الماء يطفىء النار ، وأنه يستحيل لذلك أن تصبح النار ماءاً ، أو يظن أن الماء يصير ناراً .. ولكن وصل العلم أخيراً بعد عشرات المئات من السنين ، وبعد طفرته الكبرى ، ووثبته العالية

إلى إثبات إمكان ذلك بل وتقرير أنه من المتوقع ، بل لا بد من حدوث ذلك ، فإن الماء يتكون من اتحاد ذرتين من لإيدروجين وذرة من الأكسجين وقد أمكن فى المعمل فصل الأكسجين عن الإيدروجين ، ووصل العلم إلى معرفة حقيقة واقعة ، هى أنه يوجد فى جوف البحار إيدروجين طليق ، وأن هذا الإيدروجين يختلف عن المعروف فى أن ذراته ثقيلة ، وأنه إذا وقعت مثل هذه الذرات تحت ضغط كهربائى ضاعقة مثلا أو بفعل حرارة قوية طارئة وتحطمت إحدى ذراتها أو تحطمت ذرة أخرى من أكسجين الماء لأى سبب تكون النتيجة الحتمية انفراد الإيدروجين المكون للماء، ولما كان الإيدروجين هو غاز مشتعل فتكون النهاية أن المياه أينما وجدت فى البحار والمحيطات والترع والقنوات تصبح ناراً وبهذا يتحقق ما أشارت إليه الآيات الشريفة من أن البحار ستصبح ناراً .

وأما مايشاع عن معارضة العلم للإسلام فإنه قول باطل يردده خصوم الإسلام لإثارة الشك فيه بعد أن فشلت كل جهودهم فى مهاجمتهم لعقائده ، فقد سبق لهم أن قرروا بأنه ليس فى القرآن الكريم من حقائق العلم ما يستطيعون به التأكد من أنه معجزة .. ثم ما أن أوضحت وسائل التربية الحديثة وأساليب الدراسات أن عبادات الإسلام

إنما تهدف لصالح الفرد والجماعة ، وأن كل ما توصى به الجهات المعنية بأمور المجتمعات وتربية الأجيال وإن كان يقارب العبادات الإسلامية فى مظاهرها إلا أن الإسلام يفوقها فى تحقيق أهدافه ، إذ يعتمد على الرغبة الصادقة والإيمان المطلق والطمأنينة النفسية ، وهنا اتجه الخصوم إلى إشاعة القول بأن العلم إنما يعارض الإسلام إذ ينافى بعض الحقائق العلمية التى أوردها القرآن الكريم .

ولعل هؤلاء الخصوم قد استندوا فى باطل دعواهم هذه على الإسرائيليات التى دسها المغرضون فى بعض تفاسير القرآن ونقلها البعض بعد ذلك عنهم ، فقد كان من حرب اليهود المسلمين أن يعتنق البعض منهم الإسلام حتى يمكنه بذلك أن يدس على المسلمين أحاديث غير صحيحة .. ويضع تفاسير لآيات كريمة لاتطابق الحقيقة وإنما لتباعد بين الآية وما قصدت إليه ، اعتمادا على أن تكرار هذه الأقوال ونقلها يجعلها فى يوم ما من الأصول فى التفاسير وتكون نقطة الهجوم على الإسلام من أعدائه .

وكذلك فأن من بين ما استند إليه الخصوم فى إشاعة هذا القول فتح باب التفسير على مصراعيه ، فحاوله المختصون وغير المختصين فظهرت تفاسير لآيات شريفة بعيدة كل البعد عن حقيقة ما تقصده الآية ،

فظهرت الآيات وكأنها تناقض العلم وتخالفه مخالفة أكيدة ، فنرى فى بعض الكتب التى مازالت متداولة حتى الآن ، بل وأعيدت طبعاتها أكثر من مرة تفاسير تخالف يقينا معنى الآيات ،وكأنه قد قصد بهذه التفاسير إظهار معارضة الآيات للعلم ، بالرغم من أن العلم قد أثبت أن ما جاء فى الآيات هى الحقائق العلمية التى وصل إليها العلماء كما سيتضح فيما بعد ، فنرى مثلا النص العجيب الآتى : (روت الرواة بألفاظ مختلفة ومعان متفقة أن الله تعالى لما أراد أن يخلق السماوات والأرض خلق جوهرة خضراء أضعاف أطباق السماوات والأرض ثم نظر إليها نظر هيبة فصارت ماء ثم نظر إلى الماء فغلا وارتفع منه زبد ودخان وبخار وأرعد من خشية الله ، فمن ذلك اليوم يرعد إلى يوم القيامة ، وخلق الله من ذلك الدخان السماء ، فذلك قوله تعالى : (ثُمَّ أسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ) أى قصد وعمد إلى خلق السماء وهى بخار وخلق من ذلك الزبد الأرض ، فأول ما ظهر من الأرض على وجه الماء مكة فدحا الله الأرض من تحتها فلذلك سميت (أم القرى) يعنى أصلها ،وهى قوله تعالى : (وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا) ولما خلق الله الأرض كانت طبقا واحدا ففتقها وصيرها سبعا ،وذلك قوله تعالى : (أَوَ لَمْ

يرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّماوَات وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا)

ثم بعث الله تعالى من تحت العرش ملكا فهبط إلى الأرض حتى دخل تحت الأرضين السبع ، فوضعها على عاتقه : إحدى يديه فى المشرق والأخرى فى المغرب باسطتين قابضتين على قرار الأرضين السبع حتى ضبطها ، فلم يكن لقدميه موضع قرار فأهبط الله تعالى من أعلى الفردوس ثوراً له سبعون ألف قرن . وأربعون ألف قائمة ، وجعل قرار قدمى الملك على سنامه فلم تستقر قدماه فأحدر الله ياقوتة خضراء من أعلى درجة من الفردوس غلظها خمسمائة عام فوضعها الله بين سنام الثور إلى أذنه فاستقرت عليها قدماه ، وقرون ذلك الثور خارجة من أقطار الأرض وهى كالحسكة تحت العرش ، ومنخر ذلك الثور فى البحر فهو يتنفس كل يوم نفساً فإذا تنفس مد البحر وإذا رد نفسه جزر ، ولم يكن لقوائم الثور موضع قرار فخلق الله سبحانه وتعالى صخرة خضراء غلظها كغلظ سبع سموات وسبع أرضين فاستقرت قوائم الثور عليها وهى الصخرة التى قال لقمان لابنه: (يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى السَّمٰوَاتِ أَوْ فِى الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ)

روى أن لقمان لما قال له هذه الكلمة انفطرت من هيبتها مرارته ومات ،

وكانت آخر موعظته ، فلم يكن للصخرة مستقر فخلق الله تعالى نونا وهو الحوت العظيم اسمه لوتيا وكنيته بلهوت ولقبه بهلموت فوضع الصخرة على ظهره وسائر جسده خال ، قال والحوت على البحر والبحر على متن الريح والريح على القدرة وثقل الدنيا وما عليها حرفان من كتاب الله تعالى ، قال لها الجبار كونى فكانت ، فذلك قوله عز وجل (إِنَّمَا أَمْرُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُون) وإن إبليس تغلغل إلى الحوت الذى على ظهره الأرض فوسوس إليه وقال له : أتدرى ما على ظهرك يالوتيا من الأمم والدواب والشجر والجبال وغيرها لو نفضتها أو ألقيتهم عن ظهرك أجمع لكان ذلك أريح لك ! قال فهمّ لوتيا أن يفعل ذلك فبعث الله تعالى اليه دابة فدخلت فى منخره فوصلت الى دماغه فضج الحوت الى الله تعالى منها فأذن الله تعالى لها فخرجت ، فوالذى نفسى بيده إنه لينظر إليها وتنظر إليه إن همّ بشىء من ذلك عادت كما كانت ، وهذا الحوت الذى أقسم الله تعالى به فقال (نْ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ) ثم قالوا إن الأرض كانت تتكفأ على الماء كما تتكفأ السفينة على الماء فأرساها الله تعالى بالجبال وذلك قوله تعالى (وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا) وقوله تعالى (وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً) وقوله تعالى (وَأَلْقَىٰ فِى الْأَرْضِ رَوَاسِىَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ) يعنى لكيلا تتحرك بكم ، وخلق

الله تعالى جبلا عظيما من زبرجدة خضراء خضرة السماء منه يقال له جبل قاف، فأحاط بها كلها وهو الذى أقسم الله به فقال (قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ) ... ويستمر هذا الكتاب بمثل هذه الأقوال فيما يقرب من أربعمائة صفحة .....!!

وكذلك محاولة المفسرين تفسير الآيات التى لا تدخل فى نطاق ما حصلوه من علوم فيظهر هذا التفسير وكأنه يعارض العلم مثل الآية الشريفة (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ) فسرت بأنها (محاولة الإنسان والجن الهروب من الحساب وأنهم لن يستطيعوا ذلك الا بالقوة التى تفوق قوة ربكم، وذلك مستحيل ثم يمضى التفسير قائلا بأن الله سبحانه حذر العصاة من محاولة الهرب إذ سيرسل عليهما شواظ من نار ولهيب) . فهل يوم الحساب ستكون هنالك سماوات وأرض فتكون لها أقطار يحاول الجن والإنس الهرب منها ؟.. إن آيات القرآن الكريم تنفى ذلك فى مثل الآيات الشريفة: (يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ)، (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ

مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) . وتفيد الآية إمكان النفاذ بالسلطان . . فهل يمكن لجن أو إنس مهما أوتى من سلطان أن يهرب من حساب الله . . ؟ . . ويقول العلم إن هذه الآية تسبق ماوصل إليه العلماء من محاولات الخروج من أقطار السماوات والأرض ، وأنهم سيخرجون متى توافر لهم السلطان وهو العلم والإمكانية . . وسيصلون إلى حد معين أراده الله ثم يجدون ما يحول دون استمرارهم وهو اللهب والنار . . .

وأيضاً محاولات تفسير آيات لم يصل العلم إلى الوقوف على حقائقها بعد ، فيفسرها المفسرون بآرائهم فتظهر وكأنها تعارض العلم تماماً مثل الآية الشريفة : (وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ) . . فمن قائل بأنها إنسان ، وإنها على بن أبى طالب . . وغيره يقول إنها عصى موسى . . ونجد فى تفسير آخر ما نصه (دابة هى الجساسة وطولها ستون ذراعا لايدركها طالب ولا يفوتها هارب ، ولها أربع قوائم وزغب وريش وجناحان ، وقيل لها رأس ثور وعين خنزير وأذن فيل وقرن أيل وعنق نعامة وصدر أسد ولون نمر وخاصرة

هرة وذنب كبش وخف بعير . ومابين المفصلين اثنا عشر ذراعا تخرج من الصفا فتكلمهم بالعربية فتقول (إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون) وتقول (ألا لعنة الله على الظالمين ، أو تكلمهم ببطلان الأديان كلها سوى دين الإسلام أو بأن هذا مؤمن وهذا كافر) . . وليس هذا التفسير فى حاجة إلى تعليق . . وكان من الممكن أن نشير إلى أن هذه الآية من المعجزات التى لم تتحقق بعدوأن الزمان فى انتظارها يقينا . . وكان من المستطاع الربط بينها وبين الأقمار والصواريخ التى خرجت من الأرض وهى تدب الى السماء ، وأنها تكلم الناس الآن بلغة العلم ، وهى اللغة العالمية و يتوقع العلماء الآن أنه عن طريق هذه الأقمار والصواريخ سيعرف العالم مافى الكون من معجزات بل مكنهم من تصوير الوجه الثانى للقمر والذى لم يره بعد انسان و يرى العلماء أن الآيات التى سيعرفها الناس عن طريق هذه الأقمار ستكون آيات واضحة قاطعة على وجود الله سبحانه وعظمته ووحدانيته وسيكون ذلك محققا للآية الشريفة : (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ) .

ومن ذلك أيضاً تفسير المفسر برأيه فى آيات سياقها لا يستقيم ، وهذا الرأى ، ويعتقد أن هذا اجتهاد ، بينما فى الواقع هذا أمر خطير ، مثل

ما جاء فى بعض التفاسـير عن الآية الشريفة (وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ . إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ . فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ . رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ) إذ يقول بعض المفسرين (عرضت عليه الخيل وعددها ألف فرس بعد أن صلى الظهر لإرادته الجهاد عليها فعند بلوغ العرض منها تسعمائة غربت الشمس ولم يكن صلى العصر فاغتم فطلب أن يردوا عليه الخيل فذبحها وقطع أرجلها) . . فهل يجوز لنبى أن يقتل ألف فرس معدة لجهاد العـدو ؟ . . وهل كانت صـلاة العصر قررت فى زمانه ؟ ... وألا تؤكد النظريات العلمية والدراسات الحديثة إن أحسن اختبار للخيل هو ما قام به سليمان فى هذه الأوقات إذ بعد أن تجرى الخيل إلى أكبر شوط تعود ثانية ثم يمتحن الإنسان سيقانها لمعرفة قوة عضلاتها وأعناقها للوقوف على درجة قوتها .

وكذلك مغالاة بعض العلميين فى تفاسيرهم وذلك بتحميل الآية من العلوم ما لايتفق وسياقها مثل الآيات الشريفة (وَالْفَجْرِ . وَلَيَالٍ

عَشْرٍ . وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ . وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ . هَلْ فِى ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِى حِجْرٍ) .. ومحاولة الربط بينها و بين تحنيط الفراعنة لأجسادهم حيث كان يتم ذلك فى الفجر بعد عشر ليال .. وكذلك الآيات الشريفة : (وَٱلتِّينِ وَالزَّيْتُونِ . وَطُورِ سِينِينَ . وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ) وأن هذه الآيات إنما تشير إلى بوذا حيث بات ليلة تحت شجرة من فصيلة التين والزيتون إشارة إلى رسالة عيسى وطور سينين رسالة موسى وهذا البلد الأمين رمز النبوة المحمدية .. والمعروف أن بوذا يقرر أنه لم يرسل من السماء ، ولا نزل عليه وحى أو كتاب ، كما أنه لا يقول بالآخرة ولا يؤمن بثوابها وعقابها ، وطلب من الناس ألا يشغلوا أنفسهم بأمر الخالق والغيب ولا يقيمون عبادة أو صلاة .. فكيف يربط البعض بين بوذا وباقى المرسلين ؟ ..

ومن الأسباب كذلك التى قد يتخذ الخصوم من نتائجها سبيلا إلى إشاعة معارضة العلم للإسلام المحاولات الفردية لتفسير القرآن بأكمله وهذا من أخطر ما يمكن على التفسير إذ لا يمكن للفرد مهما كانت طاقته ودرجة علمه القيام بتفسير آيات القرآن كلها فكيف يلم الإنسان منفرداً بكل ما تضمنه القرآن الكريم من علوم واعجاز ؟ .. إلماما

يجعله على درجة من العلم تمكنه من القيام بهذا العمل الضخم الجليل الخطير. إن القرآن الكريم يتضمن آيات حجة فى البلاغة والأدب بل تعتبر الأصل فى كل بلاغه وأدب ومثل هذه الآيات إذا تناولها أرباب العلم وأساتذة اللغة فإنهم يظهرون مافيها من روعة و إعجاز و بديع و بيان ، و بالقرآن الكريم آيات هى أصل كل تشريع موجود فى العالم الآن وما فيها من تقنيين وأصول تجعل القرآن دستورا لايمكن أن تصل الى مكانته أى دساتير العالم ، بل ولو كانت كلها مجتمعة وهذه الآيات هى الميدان الطبيعى لأبحاث رجال القانون وأساتذته ، وآيات العبادات والعقائد والمعاملات هى اختصاص رجال الفقه والشريعة . وبالقرآن الكريم بضع مئات من الآيات العلمية تشير الى مختلف العلوم وتتضمن حقائقا لم يصل العلم اليها الا أخيراً فآيات التشريح وعلوم الأجنة هل يمكن لغير علماء الأجنة والتشريح أن يظهروا بدائع هذه الآيات ويثبتوا اعجازها ؟ . . وآيات الطب الوقائى . . والعلاجى والاجتماعى والنفسى هل لغير أساتذة كل فرع أن يتناولوا هذه الآيات بالبحث والتفسير والتعليق ؟ . . وآيات الفلك والفضاء والجغرافيا والطبيعة . . وآيات الزراعة . . والنبات . . والوراثة . . والكيمياء . . والاقتصاد وغير ذلك من مختلف العلوم التى أثبت العلم الحديث سبق القرآن الى ايراد حقائقها أو توجيه النظر الى دراستها . . هل يمكن

لفرد أن يقوم بتفسير كل هذه الآيات . . ثم يكون هذا التفسير . .
كاملا . . واضحاً . صحيحاً . . الا اذا كان الفرد قمة فى كل فرع من
هذه الفروع . . واختص فيها كلها وهذا ما لا يمكن . .

وإن تأخيرنا فى الاهتمام بالتفسير العلمى خوفا على آيات القرآن
الكريم من أن نعرضها لنظريات علمية قد تتغير مما قد يثير الشك فى
هذه الآيات كما قال البعض ، لمن الأمور التى جعلت الخصوم يشيعون
عن القرآن أنه لم ترد فيه حقائق علمية يمكن عن طريقها الوقوف على
إعجازه ، وإن ما دعى إليه من الخلق الحميد ، والمعاملة الحسنة ،
والصفات الطيبة فقد دعت إليه الأديان الأخرى ... وقد يكون لبعض
المعترضين الحق إذا كان ما ندعو إليه هو التفسير بنظريات علمية ..
ولكن لم يتجه أى إنسان مخلص فى دعوته إلى النظريات العلمية بل إلى
الحقيقة العلمية . والفارق بين النظرية العلمية والحقيقة العلمية كبير وكبير
جداً .. إذ أن النظرية العلمية هى ما لم يقم الدليل على صحتها بدرجة
تجعلها حقيقة غير قابلة للتطور أو التغير أو التعديل .. فقد كان المعروف
أولا أن الأرض منبسطة بدليل أن الإنسان إذا نظر أمامه رآها هكذا
منبسطة .. ولم تكن هذه حقيقة علمية ولم ترتفع إلى درجتها .. بل عندما

رأى العلماء أنه عنـد رصد السفن فى البحار فإن أولى ما يرى منها أعلاها . . فقالوا بنظرية كروية الأرض . . ولم تقرر كروية الأرض كحقيقة إلا بعد أن أضيف إلى هذا الدليل أدلة متعددة وضعت موضع الاختبار القياسى .. فقيست أبعادها .. وأخذت أقطارها وصورت من خارجها فإذا بها كروية ، وعندئذ أصبحت كروية الأرض حقيقة؛ فهل من خوف الآن من أن نجد الأرض غير ذلك ؟ — فإذا فسرنا الآيات الشريفة الواردة فى القرآن والتى تشير إلى كروية الأرض قبل أن يصل العلم إلى ذلك بعشرات المئات من السنين أيكون هناك من خوف على هذه الآيات ، ونكون قد عرضناها لنظريات متغيرة ؟.. ثم هذه الأوجه فى الآية الواحدة .. والتى وصل المفسرون إلى مايقرب من العشرة أوجه فيها . . ما ضر لو زادت وجها . . علميا . . مؤكدا . . ثم هل إذا ظهر العلم بعد ذلك بحقيقة أخرى تغاير ما فسرت به الآية . . هل يمكن لقائل أن يقول : إن الخطأ فى الآية ؟ .. أم ترى سيقول الناس : لقد أخطأ المفسر ؟ . . . كما أن مما قد يثير الخصوم الشك به تفسير كل آية فى موضع من القرآن تفسيرا يغاير تفسير آية مماثلة فى سورة أخرى لا سيما الآيات العلميـة أو التشريعية .

إن إعجاز القرآن العلمى ليظهر بجلاء أكثر إذا ما درست آيات

الموضوع الواحد وربطت بعضها ببعض وفسر بعضها البعض وتم التعليق عليها بما أوضحه العلم .

وهكذا فإنه لاتعارض بين العلم والدين إطلاقا . وإذا كان التاريخ يحدثنا أن كل تقدم علمى إنما يصاحبه دائماً نهضة دينية ، وأن ازدهار الدين وانتشاره إنمـا يعم ويتسع فى عصور العلم ، فيا ترى ماذا يكون مستقبل الدين فى القريب العاجل ؟ .

إن عصرنا الحديث ليتميز على غيره بتلك النهضة العلميه الجبارة التى ليس لها مثيل فى تاريخ البشر إذ قد حقق الإنسان فيه انتصارات علميه فى ميادين لم يسبق له أن ارتادها ، فإن كانت العلوم الطبية والفلـكية والرياضية وغيرها قد أثبتت الآثار أن الإنسان فى عهود العلم والمعرفة سواء أكانت قبل التاريخ أو بعده له فيها جولات وحقق فيها انتصارات فإن إنسان هذا العصر قد غزا بالعلم آفاقا جديدة تعتبر على حد مايعرف التاريخ أول محاولات للبشر . فهذا علم الأجنة الذى أصبح عن طريق أجهزة التصوير والأشعة يصف ويسجل عن طريقة المشاهدة كل تطور يحدث فى الجنين منذ أن يبدأ بنطفة لاترى بالعين المجردة إلى أن يولد تام الخلقة وكامل التـكوين .

وإذا كانت ليلة ٧ يناير عام ١٦١٠ اعتبرت حدا فاصلا فى تاريخ الفـكر وتطور المعرفة إذ جلس فيها ذلك الـكهل العجوز جاليليو

أمام منظاره الفلكى الذى صنعه بيديه يجول به فى السماء ليرصد النجوم لأول مرة فى تاريخ العلم ، فإن يوم ١٤ أكتوبر عام ١٩٥٧ ليعتبر يوما حاسما فى تاريخ العلم إذ أطلق الإنسان أول جهاز خرج من الأرض فى دراسة للسماء يحمل أجهزة التسجيل والتصوير ثم تتابع خروج الأجهزة منتصرة على جاذبية الأرض ؛ فمنها من لف حولها مرة ومنها من دار حولها مرات ومنها من اتخذ مداره حول الشمس واحدها سقط فوق القمر ، وحملت الأجهزة أخيراً الإنسان نفسه ليرى و يشاهد ويسجل و يستعد الإنسان حالياً إلى زيارة الكواكب . . وقد يكون النجاح حليفه فى أول محاولة .. وقد لايصادفه إلا بعد مرة أو مرات . . إن الإنسان يتوق لرؤية ما فيها .. وسيدهشه يقينا ما يجده فيها .. فأى حياة ترى سيجدها الإنسان ؟ . . بعد أن تحقق من وجود الحياة على صورة ما ... فيها .. وعلى أى هيئة سيكون الأحياء فيها ؟...وإلى أى درجة من الإيمان بالله وصلوا إليها . . و يا ترى على أى شكل ستوجد آيات الله فيها .. ؟.. هل سنسمع كلمة التوحيد تردد ها الرياح والهواء .. أم ستحدثنا الجبال والأودية بأن لا إله إلا الله فى كل حين فى الصباح والمساء ؟ .. أم ياترى سيكون التكبير لله هو ماتغرد به الطير وسيكون هو خرير الماء . . إن الأفراد الذين خرجوا من الأرض فى الأقمار ولم يغادروها إلا إلى مسافة لا تعتبر شيئاً قد أدهشهم ما أبصروه ، و بهر

أعينهم ماشاهدوه ولم يستطيعوا للروعة وصف ما رأوه .. وإن من عاش منهم طول حياته ولم يعرف عن الدين شيئاً .. ولا يؤمن به أبداً .. قد عاد ليتشكك فى الشك الذى تعلمه بل بدأ الشك فى شكه منذ أن خرج من الأرض .. فيقول أحدهم أنه سأل نفسه وهو فى جهازه بعد أن رأى الأرض معلقة فوق رأسه .. ترى من يمسكها فلا تقع .. فهل من جواب غير واحد .. فمن يمسك السماوات والأرض غير الله الواحد ..؟ .. ونص القرآن: (إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا »

إن الشواهد لتؤكد أن موجة الإلحاد التى كانت منتشرة فى بعض الجهات فى طريقها إلى الانحسار بل إلى العدم ، فقد تتابع إيمان العلماء الذين ظلوا يحاربون الدين أمدا طويلا .. ونسمع الآن فى كل مكان من العالم النداءات الصادقة التى تطالب بمزيد من المعرفة عن الأديان ونحس بالرغبات المخلصة التى تلتقى حول هدف واحد .. البحث فى الأديان .

لقد أدهش كبار الأطباء فى دول مختلفة ما وصل إلى علمهم من أن القرآن الكريم أورد حقائق الخلق ، وقرر تطورات الجنين فى مختلف أدواره قبل أن يصل العلم اليها بعشرات المئات من السنين وقبل استعمال الأجهزة والأشعة والمجاهر ، وأدهشهم أكثر ألا يعتنى المسلمون

بإظهار مثل هـذه الحقائق العلمية الـكفيلة وحدها بنشر هذا الدين بين الأوساط العلمية وجمهرة المتعلمين فى أنحاء العالم وهؤلاء هم أغلبية سكان الأرض حالياً .. وإن هؤلاء الذين يعتنقون الإسلام كل يوم بل كل ساعة من علماء روسيا ومهندسى ألمانيا وقادة الفـكر بانجلترا ورجال الأعمال بأمريكا إنما اهتدوا إلى الحق بأبحاثهم التى قاموا بها منفردين .. دون ضغط أو تبشير أو مساعدة من أى من المسلمين .. فيا ترى كيف لو قام المسلمون بواجبهم .. الذى فرضه عليهم الإسلام فرضا ؟ .. فإن الدعوة الإسلامية ليست للعرب وحدهم إنما هى للجميع ، كما أن رسول الإسلام لم يرسل إلى قوم بعينهم كما أرسلت باقى الرسل بل إنه أرسل للناس كافة ، وذلك بنص الآيات الشريفة (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلعَالَمِينَ) ، (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً) ، (قُل يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيكُمْ جَمِيعاً) ولذلك فإن رسول الإسلام هو خاتم الرسل والنبيين ، والإسلام هو آخر الأديان التى ارتضاها الله سبحانه وتعالى لعباده إتماما لنعمته عليهم وإكمالا لدينهم وذلك بالنص الشريف (مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَـكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ

شَيْءٍ عَلِيمًا)، (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً) اذا فقد وجب على المسلمين تبليغ الدعوة الى كافة جهات العالم واذا كان هذا هو الذى يفرضه الإسلام على المسلمين فى كل وقت .. فإنه فى الوقت الحاضر لأكثر وجوبا من أى وقت آخر اذ أن العالم الآن يمر بفترة مشرقة من الإيمان بالله وتتجه الأبحاث الآن الى الأديان تريد الوقوف على حقائقها وتفهم عقائدها حتى يمكن تبليغها الى هؤلاء الذين سيضئ العلم فى قلوبهم فيرون ما كانوا عنه غافلين من آيات الله . .

ولا يحتاج أمر التبليغ شيئاً . . ولا يستلزم منا جهداً .. إذ لم ينتشر الإسلام بحروب أعلنت أو أموال أنفقت أو أكاذيب رددت؛ إنما هى حقائقه وقد أوضحت ؛ وعقائده وقد افهمت ، فآمن بها كل من تأملها . . واعتنقها كل من تدبرها ، فعلى المسلمين أداء ما يفرضه عليهم الإسلام من وجوب نشر حقائق الإسلام وإظهار أوجه إعجاز القرآن بالطريقة التى تلائم العصر وتناسب الوقت .

وإن الجمهورية العربية المتحدة التى كانت ومازالت وستظل دائماً مركز الاشعاع الدينى والعلمى والفكرى ليقع عليها العبء كله فهى

ملتقى آمال المسلمين فى أنحاء العالم ، وهى مركز الدراسات الإسلامية منذ أن أشرق على الوجود نور الإسلام ، وإن النهضة الكبرى التى شملت كافة ميادين الحياة فى الجمهورية لتجعلنا نثق فى المستقبل القريب بأن الدعوة الإسلامية ستنطلق قوية عالية من جمهوريتنا إلى كل شبر من الأرض فيه قلب آدمى ينبض وروح بشرية فى جسدها تحيا . . وذلك استجابة لداعى الله . . وأداء للواجب الذى يفرضه علينا الإسلام . . .

وإن أول ما يجب علينا أن نؤديه فوراً إعداد وسائل هذه الدعوة . وذلك بتوحيد تفاسير القرآن الكريم فى تفسير واحد يضعه مجمع إسلامى على مستوى أكاديمى يضم أساتذة اللغة وقادة الفقة والشريعة ورجال التشريع والقوانين وأساتذة الطب من مختلف فروعه .. ورجال الفلك من كافة ميادينه . . وعلماء الأحياء . . ورجال الزراعة والنبات . واساتذة الاقتصاد . . والإخصائيين فى التربية والدراسات . . وكل العلوم والمعارف إذ ثبت أن القرآن الكريم يحوى أصولها ويسبق الزمن فى إيراد حقائقها . . وأن يكون هذا التفسير هو التفسير المعتمد فلا يخرج غيره إطلاقاً . . ويترجم هذا التفسير إلى كل لغات العالم .. ويحبس ما عداه عن التداول .. فإن القرآن الكريم هو كتاب المسلمين جميعاً فلا يحق لفرد أن يتناوله بتفسير يخرجه على الناس فيضر به

الإسلام ، ويحاربنا به الأعداء . . وكيف يمكن لفرد أن يستوعب ولو طول حياته أسرار آية واحدة لاتتصل علومها بدائرة ما تعلم . . فكيف والقرآن الكريم لم يترك علماً أو معرفة أو أصلا أو وجها للإعجاز إلا وأورده . . ؟ ..وعلى هذا المجمع أن يعيد النظر فى التفسير على رأس كل قرن من الزمان كحد أقصى أو نصف قرن كحد أدنى وذلك لإضافة ما قد يكون أظهرته الأبحاث والدراسات أو اكتشفه العلم من حقائق جديدة تضاف إلى معانى الآيات ، وتوضح إعجازها حتى تراه الأجيال المختلفة موضع الإعجاز والإقناع ،فإن القرآن الكريم كتاب أبدى نزل ليكون معجزا لمختلف الأزمنة والأجيال .

وليس فى هذا كما قد يتبادر إلى الذهن قفل لباب الاجتهاد بل بالعكس ففيه المجال لكل مجتهد إذ أن ما يجب على الإنسان أن يجتهد فيه ، هو ما يقع فى حدود علمه ، ودائرة تخصصه ، فكما أن الطبيب مثلا لايجتهد فى ميدان الهندسة والمهندس لايجتهد فى ميدان العمليات الجراحية فمن باب أولى لايجتهد الطبيب فى ميادين الهندسة ، وأصول اللغة ، وفى علوم الفلك وفى مداخل القانون ووضع الدساتير وحكم الفقه والشريعة وغيرها . لذلك فانه يجب على المجتهد فى آيات القرآن الكريم ألا يكون ميدان اجتهاده سوى الآيات التى تخصص فى دراسة

العلوم التى تشير إليها أو توجه النظر لها أو تورد حقائقها فيحاول أن يربط بين الآيات المختلفة التى تتصل بعلم بعينه يكون قد تخصص فيه و بين ما وصل إليه هذا العلم من حقائق و ينشر أبحاثه هذه فى شكل رسائل تحتوى صورا من إعجاز القرآن الكريم لتدعو الناس إلى التدبر والتأمل فى آياته . . فيضع عالم الأجنة رسالة فى إعجاز القرآن الكريم فى علم الأجنة ، و يصدر عالم الفلك رسالة عن سبق القرآن الكريم لهذا العلم فى ميدانه . . و يربط رجل القانون . . بين ما وضعه رجال القانون فى العالم وما جاء به القرآن من عشرات القرون السابقة . . . وللمجمع العلمى أن يأخذ من هذه الرسائل . . التفسير المناسب لكل آية .. وتكون الرسائل هى دراسات للموضوعات التى جاء بها القرآن الكريم علمية أو تشريعية .. أو بلاغية .. أو اجتماعية .. وهذا ميدان الاجتهاد الفردى . . إذ يجتهد كل إنسان فى ميدان عامه فتظهر للناس روائع إعجاز آيات القرآن الكريم .

كما يجب علينا إعادة النظر فى الكتب الدينية المتداولة ، وكل كتاب يحوى خرافات مدسوسة . . أو إسرائيليات موضوعة أو آراء خاطئة لا يقبلها العقل أو يعارضها العلم يجب إعدامه فوراً ، والاستغفار لصاحبه إن كان ناقلا بلا سوء فى القصد و بلا عمد إلى إثارة الشك .

ويجب كذلك النظر فى الطريقة التى يتلى بها القرآن الكريم فقد توسعنا فى تنغيمه .. فصرفنا المغنى عن المعنى ، وعجبنا الصوت بالمد والوقف .. عن البحث والتأمل والدرس والتدبر . وابعدتنا تلاوة التطريب عن الإحساس بالترغيب والترهيب .. فهل هؤلاء الذين يظهرون الاستحسان عقب كل آية .. بنغمة تتمشى مع أنغام التلاوة .. قد استجابوا للقرآن الكريم وقد طالبهم بضرورة الإنصات إلى قراءته .. بالاستماع إليه بالأذن والعقل والقلب .. فتعم علينا رحمة الله ، وذلك بنص الآية الشريفة : (وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْءَانُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

وهل يتفق ذلك مع ما يجب أن يكون عليه حال المسلم وهو يستمع إلى كلام الله ... لقد وصف الله ما يجب أن نكون عليه بنص الآية الشريفة (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ) . فهل نحن منهم ؟ .. ندعو الله أن نكون معهم ..

إن هذه لهى وسائل أداء الأمانة .. أمانة تبليغ الدعوة الإسلامية إلى العالم .. لا سيما فى هذا الوقت الذى قارب العالم أن يصل فيه إلى قمة العلم .. وتشير الأدلة إلى إشراق عهد جديد أهم ما يميزه رجوع الناس جميعا إلى الله .. والعودة إلى الدين ...

الدين الذى يدعو إلى العلم . .

ويدعو إليه العلماء . .

الإسلام يدعو إلى العلم
ويدعو إليه العلماء

إن دعوة الإسلام إلى العلم لم تعد فى حاجة إلى دليل لإثباتها بعد أن قررتها الحقائق القاطعة التى لاتحتاج إلى مزيد من البيان فالقرآن الكريم وهو كتاب الإسلام نزلت أول آياته أمراً صريحاً بالقراءة بالنص الشريف (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ) وحتى يتأكد الإنسان أن هذه الدعوة إلى القراءة إنما هى دعوة إلى العلم نجد أن الآية الثانية توجه النظر إلى أدق العلوم وأكثرها التصاقا بالإنسان ألا وهو علم الحياة ونصها (خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ) ثم نجد أن الآية الثالثة تكرر الدعوة إلى القراءة تأكيداً لها وتظهر طريق العلم وتقرره ألا وهو القلم بالنص الشريف (اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ. الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ) وهكذا طالب الإسلام الإنسان فى أول آيات القرآن الكريم أن يقرأ ويدرس العلم كتابة وقراءة ، فإذا استجاب لما دعاه إليه القرآن فقد أعد نفسه لتلقى فيض الله بما يلهمه من العلم ، وذلك بنص الآية الرابعة (عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) .. فهل مصادفة ترتيب هذه الايات ؟ . أم الحكمة .. كانت .. وهل يشير نزولها كأول ما نزل من القرآن الكريم إلى هدف غير الدعوة إلى العلم وتشريفه وبيان مكانه فى الإسلام ؟ .. ويتردد بعد ذلك لفظ العلم ومشتقاته فى القرآن الكريم

حوالى ٥٨٠ مرة .. ألا يؤكد ذلك اهتمام الإسلام بالعلم والدعوة إليه ؟ ..

وكرم الإسلام العلم تكريما يتضح قدره من أن القرآن الكريم قد أطلق لفظ العلم على الله سبحانه وتعالى فجعل العلم من صفاته وتكرر ذلك حوالى ١٦٢ مرة فى مثل الآيات الشريفة (وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ)، (وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) ، (وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا) كما يتضح أيضا تكريم الإسلام للعلم من رفع قدر العلماء إذ جعلهم بعد الملائكة فى شهود وحدانية الله سبحانه وتعالى وذلك بنص الآية الكريمة (شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ) بل وقرر لهم ضعف الثواب إذ أن كل من خشى الله وخاف مقامه فله جنتان بنص الآية الشريفة (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ) .. والعلماء يخشون ربهم بنص الآية الكريمة (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ

عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) .. ووعدهم برفعهم درجات بنص الآية (يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ) .

وبالعلم يقرر القرآن الكريم أن الله سبحانه وتعالى ميز آدم على الملائكة إذ عندما أراد سبحانه جل شأنه أن تسجد الملائكة لآدم علمه الأسماء فامتاز عليهم بنص الآيات الشريفة (وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ . قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ . وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ) .

وهل أدل على تشريف القرآن الكريم للعلم و بيان درجته من

الآية الشريفة : (وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ الَّذِى أُنزِلَ إِليكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الحَقَّ وَيهدِي إِلى صِراطِ العَزِيزِ الحَمِيدِ) إذ تقرر أنه بالعلم سيعرف الإنسان أن هذا القرآن هو الحق وأنه يهدى إلى الصراط المستقيم . ولهذا فإن القرآن الكريم قد دعا إلى تدبر آياته والتدبر هو الدراسة العميقة والفهم التام والبحث الشامل ، وذلك فى آيات كثيرة مثل (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ) ، (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ القُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا) .

وكذلك ليس أكثر دلالة على تشريف العلم من أن الله سبحانه وتعالى أقسم بأدواته فى القرآن الكريم فى مثل الآيات الشريفة (ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ) .

وتدعو آيات القرآن الكريم إلى النظر فى كل ما يحيط بالإنسان بل وفى نفسه ، وليست الدعوة إلى النظر والتى وردت فى آيات كثيرة هى دعوة للرؤية السطحية العابرة بل إن النظر يقصد به الدراسة العميقة والبحث المستمر ، ففى مثل الآية الشريفة : (قُلْ أُنظُرُوا مَاذَا فى

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) هل النظرة قصد بها هنا مجرد رؤية ما فى السماوات والأرض وهل يمكن ذلك إلا باستعمال الأجهزة والآلات؟. وكذلك فى مثل الآيات الشريفة : (أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ) . (فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ) . (وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا) . . إنها دعوة إلى الدراسة الشاملة التى تشمل التشريح والتأمل والترقب وانتظار النتائج واستخلاص الحقائق .

بل إن القرآن الكريم قد سبق العصر الحديث فى تقريره لوسائل الدراسة الحديثة التى تعد نهائية فى بعض العلوم ، فمثلا علم النبات بعد أن وصل إلى قمة التقدم نراه يعتمد فى دراسته الأساسية على المشاهدات النظرية فيبدأ بوصف النبات ظاهريا ثم دراسة الشكل الخارجى لكل جزء من أجزائه ثم مراقبة التطور الذى يحدث عند الإثمار ، إذ يعد نضج الثمار من أهم ما يعتمد عليه فى الدراسة العلمية للنبات ، وهذه الطريقة فى الدراسة والتى وصل إليها العلم فى أقصى تقدم وصل إليه دعا الإسلام إليها نصا وتفصيلا فى الآية الشريفة التى نصها : (وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ

فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون) .

ومن وسائل الدراسة العلمية التى سبق بها الإسلام قيام البعثات الكشفية التى تجوب أنحاء العالم تبحث فى الحفريات والآثار عن أصل الخلق ، هذه البعثات التى نراها الآن تذهب إلى كافة البلاد وتعيش مددا طويلة تبحث فى الأحجار ، وتحت المحيطات ، وفى الوديان والجبال تقدر أعمار ما تراه وتحاول أن تصل بدراسة ما تراه من آثار على عمر الوجود وعلى حياة الإنسان وأين عاش وكيف كان ..؟ ألا يسبق القرآن الكريم العلم عندما قرر هذه الوسيلة فى الآية الشريفة (قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق) . . . ؟

والتفكر الذى توصى به الدراسات الحديثة باعتبار أنه أعلى صور التعلم وأحسن وسائل التعليم سبق بها القرآن الكريم إذ طالب الإنسان بالتفكر فى خلق السماوات والأرض بالنص الشريف :

(الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقعُوداً وَعَلَى جنوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ) كما طالب الانسان بالتفكر فى نفسه بنص الآية الشريفة: (أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ).

وأورد القرآن الكريم مواد التفكر فى آيات كثيرة مثل : (وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) .

وكما يضرب العلم فى آخر توجيهاته الأمثلة لتتسع مدارك الناس نرى القرآن الكريم قد سبقه بإيراد القصص والأمثال حتى يتفكر فيها الإنسان وتتسع مداركه مثل الآيات الشريفة : (إِنَّمَا مَثَلُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن

لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) ، (فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) .

ولما كان العقل هو ميدان العلم . . فإن الإسلام طالب الناس بالتعقل . وتنمية العقل لاتكون إلا بالعلم ، فمطالبة الإسلام إذاً بالتعقل إنما هو بطلب العلم ، وقد تردد ذلك في القرآن الكريم حوالى ٤٩ مرة في مثل الآيات الشريفة (اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) . (وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلاَفُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ) وليس أدل على تشريف القرآن الكريم للعقل وحرصه على بيان قيمته من أنه قدر أن الرجس نصيب الذين لايعقلون بنص الآية الكريمة :
(وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ) .

وأن الذين لا يعقلون هم من شر ما خلق الله بنص الآية :
(إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ)

ولا يقتصر الأمر على الدعوة إلى العلم ولكن يسير القرآن الكريم بالناس فى ميدان العلم إلى أكثر من ذلك : إنه أورد حقائق العلوم على اختلافها بلا لبس أو غموض . . والقرآن عندما يقرر الحقيقة العلمية لايورد تفاصيلها ولا يحدد تطوراتها إنما يسبق العلم بأن يقرر الحقيقة ويترك للمسلمين وسائل البحث والدراسة التى تؤدى إلى الوصول إلى هذه الحقيقة . . وبذلك يكون القرآن قد أورد وجها من إعجازه يتجلى فى هذه الحقائق العلمية وسبقه العلم فى ميادينها ، ويكون أيضاً قد دفع المسلمين إلى البحث والدراسة .

فمن الحقائق العلمية التى أوردها وسبق بها العلم أكثر من عشرة قرون شكل الأرض إذ تقرر الآيات أنها كروية وليست تامة التكوير إنما هى أشبه الأشياء بالدحية أى البيضة ، وذلك فى وقت كان الرأى العلمى السائد أن الأرض منبسطة مستوية إذ تقول الآية الشريفة : (يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ) . (وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا) كما وصل إلى حقيقة تكوين الأرض وخلق الكون مقررا

أن السماوات والأرض إنما كانت سديماً واحداً انفتق مكوناً هذه الأجزاء وذلك بنص الآية الشريفة : (أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ) وهذا هو ما وصل إليه العلم بعد أن قرره القرآن بأكثر من ألف سنة .

وكل ما وصل اليه علم الطب الحديث فى كافة فروعه سبق إليه القرآن الكريم فكل ما وصل إليه علم الأجنة بعد اكتشاف المجاهر والآلات وأجهزة التصوير والفحص قررته آيات القرآن الكريم فى مثل الآية الشريفة : (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ طِينٍ . ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ . ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً) بل حدد القرآن الكريم مكان تكوين بويضات الأنثى ومادة الرجل المخصبة فى الآية الشريفة : (فَلْيَنْظُرِ الإنْسَانُ مِمَّ خُلِقْ . خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ . يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ) . . بل إن العلم بعد أن وصل عن طريق

التشريح والتصوير إلى حقيقة هامه وهى أن الجنين بعد أن يتم نموه فى الرحم يكون محاطا بثلاث أغشية صماء لا ينفذ منها الضوء ولا الحرارة ولا الماء ، وهذه الأغشية هى المنبارية والامينو نية والخوربونية . ويسمى مثل هذا الغشاء فى اللغة العربية ظلمة .. نجد أن القرآن الكريم قد سبق إلى إيراد هذه الحقيقة فى الآية الشريفة ..
(يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ .)

وفى الطب الوقائى نجد الآيات الكريمة (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ) . وعرف العلم خيرا أن الميت لايموت إلا بميكروبات وجراثيم ضارة لابد وأنها تسبب ضررا بالغا لمن يتناولها كما أن الدم يعتبر حامل الميكروب .. حتى أنه إذا استعصى على الطبيب تشخيص مرض نجده يلجأ إلى الدم فيحلله ليجد الميكروب الذى يسبب المرض علاوة على أن الدم يحمل كل السموم التى فى الجسم . أما لحم الخنزير فعرف أخيرا أنه يحوى حويصلات الدودة الشريطية وأنه العائل الوحيد لهذه الدودة التى تصيب الإنسان . والآية الشريفة
(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ

لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا) . والتى نجدها قد سبقت الأبحاث الطبية التى وصلت إلى حقيقة قاطعة وهى أن الخمر وإن كانت مصدر ربح للمتعاملين فيها فإنها تضر شاربها ضرا بليغا ، فالخمر يسبب تحول الخلايا الكبدية الحية إلى ألياف ميتة لافائدة للجسم منها ، وينتج عن ذلك التليف الكبدى واستسقاء فى البطن كما تؤدى الخمر إلى تصلب الشرايين وما يتبعه من مضاعفات كأمراض القلب والكلى والنزيف المخى ، كما تؤثر على الجهاز العصبى تأثيرا خطيرا . والميسر يسبب صدمات عصبية وقلقا نفسيا يصعب بل يستحيل علاجه علاوة على ما يخلفه الميسر من حقد وغل وضغينة فى نفس الخاسر من الرابح .. ويشجع الربح المزعوم .. اللاعب على استمراره فى اللعب .. وتدفع الخسارة اللاعب إلى معاودة اللعب طمعا فى الربح وأملا فى تعويض الخسارة . . وتستمر الحلقة التى يدور فيها اللاعب . . وتكون النتيجة الحتمية خسرانه لماله .. واعتلال صحته .. وضياع وقته فيما يضره ..

وأول وسائل الطب النفسى نجدها فى القرآن الكريم الذى قرر الطرق الصحيحة لشفاء أمراض النفس والوقاية منها ، والتى وصل اليها العلم أخيراً وأطلق عليها اسم التحليل النفسى الذى يعتمد على اعتراف الإنسان بخطاياه ، واعتذاره عما تم . والفرق بين الطب النفسى

كما قرره العلم وكما قرره القرآن الكريم أن الطب النفسي دعا إلى الاعتراف والاعتذار أمام الطبيب ، اما القرآن الكريم فقد طالب بالاستغفار بين يدى الله .. فما أبعد الفرق .. إذ تقول الآيات الشريفة

(وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا) ، (وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ . أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ) .. وهل هناك من يغفر الذنوب وينشر الرحمة إلا الله ؟ .. فتقول الآية الشريفة : (قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) وهل هناك أقرب إلى الإنسان من الله .؟. فتقول الايات الشريفه .

. (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ

إِذَا دَعَانِ) ، (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيهِ مِنْ حَبْلِ الوَرِيدِ) ، (مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوى ثَلاَثَة إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ) .

ويسبق القرآن الكريم العلم فيما لايزال العلم يبحث فيه ولم يصل فيه إلى رأى قاطع ، فقد قرر القرآن الكريم أن فى خلق السماوات والأرض آيات كثيرة بنص مثل الآية الكريمة (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ) ثم وجه النظر إلى دراسة هذه الآيات فى مثل الآية الشريفة (قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ) وبعد أربعة عشر قرنا تجتمع أكبر تعبئة علميه عرفت فى التاريخ تتمثل فى عشرة آلاف عالم يمثلون ثلاثين دولة لدراسة أسرار السماء والفضاء .. ثم تخرج الأقمار الصناعية من الأرض لتدور حولها ويخرج الإنسان لأول مرة فى تاريخ البشرية من الأرض فى محاولة لغزو الفضاء ، وزيارة الكواكب الأخرى ويكون ذلك تحقيقا لما سبق القرآن أن قرره فى الآية الشريفة (يَامَعْشَرَ الجِنِّ وَالانْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ

السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ فَانْفُذُوا لاَ تَنفُذُونَ إلاَّ بِسُلْطَان).

والسلطان هو العلم والإمكانية .. ويقرر القرآن الكريم أن الإنسان سيصل إلى حد فى الفضاء أراده الله سبحانه وتعالى وبعد ذلك فلا سبيل له إذ سيجد النار والنحاس ترسل عليه فلا يستطيع مواصلة الغزو وذلك بنص الآية الشريفة (يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلاَ تَنْتَصِرَانِ). وقد بدأ الإنسان يعلم عن الأشعة الكونية والبروتون السالب وغيرها كثير من المواد المدمرة التى تحيط بالسماء فى مكان لا يعلمه إلا الله .... وهناك آيات فى القرآن الكريم تؤكد معنى غزو الإنسان للفضاء وتصف هذه المحاولات فى مثل الآيات الشريفة (فَلاَ أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ . وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ . وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ . لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ) والشفق هو ما نراه فى الأفق ، وما وسق الليل هو النجوم ، والقمر إذا اتسق أى إذا وضح وعرف الإنسان عنه الكثير ، وسيركب الإنسان فى محاولات الغزو طبقا عن طبق أى سيصل من مرحلة إلى أخرى أو بجهاز إلى آخر ، وهذا ما قرره علماء الفضاء إذ لا سبيل إلى إتمام محاولة غزو الإنسان للفضاء وزيارته للكواكب إلا عن طريق محطات الفضاء الذى تحقق الغزو على مراحل .. ومن جهاز

إلى آخر . ومن ضمن ما وصل إليه علماء الفضاء فى أبحاثهم الطبية .. وفى فرع من العلم جديد يسمى طب الفضاء حقيقة قررها العلم وهى أنه إذا ارتفع الإنسان فى الفضاء فإن اختلاف الضغط الجوى بنقصه عن المعدل الذى اعتاده الإنسان وكذلك بنقص الأكسجين الذى يجب أن يستنشقه الإنسان يشعر بضيق ويزداد شعوره هذا كلما زاد فى الارتفاع ، وما وصل إليه العلم فى الأعوام القليلة الأخيرة سبق أن أورده القرآن الكريم بالنص الشريف (فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ) .

وقد اتجه العلم حاليا بالبحث فى مشاهداته التى أمكن عن طريقها تقرير احتمال وجود حياة على صورة ما فى الكواكب الأخرى . فهاهى الأنباء تتواتر من مختلف دول العالم باعتراف العلماء بوجود حياة نباتية مؤكدة فى المريخ وغيره .. هذه الحياة النباتية تمتاز بالتنظيم والإعداد .. الأمر الذى يؤكد وجود أحياء .. ثم يدرس علماء الفلك الكواكب التى تقع على بعد من النجوم يطابق بعد الأرض عن الشمس ، ولها أجواء وظروف تماثل الأرض ، فإذا بها تزيد على

الملايين . . . فأى حياة وأحياء فيها . . ؟ وكان الاعتقاد السائد منذ أربعة عشر قرناً حين نزل القرآن الكريم أن لا حياة ولا أحياء إلا على أرضنا هذه . . بينما يقول القرآن الكريم برأى مغاير إذ يقرر وجود حياة وأحياء فى السماوات فى مثل الآيات الشريفة : (وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً) ، (تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ) . . وكان الاعتقاد أن هذه الآيات إنما تخص الملائكة ولكن مثل الآية الشريفة : (وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ) تقرر أن هذه الأحياء تدب وتسير وتسعى وكذلك مثل الآية الشريفه : (يَسْأَلُهُ مَنْ فِى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ) تقرر أن هذه الأحياء تطلب من الله وتسأله كل شأن لها ويستوى فى ذلك أحياء السماوات وأحياء الأرض .

ولا يتسع المجال إلى بيان الآيات العلمية فى القرآن الكريم والتى سبقت العلوم فى كافة قطاعاتها حتى ولو كان إيراد آية واحدة فى كل فرع من العلوم ، وقد أصبح الإعجاز العلمى للقرآن الكريم مما لا يحتاج

إلى دليل على بيانه ، فقد اجتهد العلماء فى ميدانه وفى كل يوم يضيفون إلى هذا الإعجاز إشراقات جديدة تؤكد أنه وحى الله سبحانه وتعالى أوحى به إلى خاتم رسله وأنبيائه ليكون معجزة أبدية يؤمن بها كافة الناس فى كافة الأزمنة ومختلف الأجيال .

ولا يقتصر إعجاز القرآن العلمى على العلوم التى قد تسمى بالعلوم الطبيعيه ، بل إنه باعتراف الخصوم وشهادة الأعداء قد حوى كل أسباب قيام المجتمع الصالح الذى يتعاون أفراده وتتحاب جماعاته وتتساند هيآته ويطيع ناسه ولاته . ويعدل ولاته بين أبنائه ؛ ولذا فإن القرآن لم يترك علاقة تقوم بين فرد وآخر .. الزوج وزوجته .: الابن ووالده الجار وجاره .. البائع والمشترى .. المقرض والمقترض .. الحاكم والمحكوم .. إلا وأورد أساسها .. وحدد معالمها .. وبذلك فقد سبق كافة التشريعات والقوانين فى تقرير حقوق الأفراد وواجباتهم ..

فالمرأة وهى نصف المجتمع كانت قبل الإسلام فى أى مكان من العالم تعامل على أنها — وكأنها — قطعة من المتاع ، فليس لها من حقوق إطلاقا ، ولكن عليها كل الواجبات ، التى يفرضها عليها زوجها أيا كانت هذه الواجبات ومهما كانت .. ولذلك كان أسوأ ما يسمعه الرجل لو بشر بأن زوجته ولدت له أنثى ، وفى ذلك يقول القرآن الكريم :

(وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ . يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ) وكثيراً ما قتل الرجل ابنته بأن يدفنها حية فى حفرة وذلك كما تقرر الآية الشريفة : (وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ) . ولهذا فإن الإسلام هو النظام الأول فى العالم الذى أخذ بيد المرأة إلى حيث جعل لها ما للرجل وعليها ما عليه ، إلا ما زاد للرجل فى سبيل تبعات الإنفاق عليها ومراعاة أمورها وذلك بنص الآية الشريفة : (وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ) . بل بلغ من إكرام الإسلام للمرأة أن خصها القرآن الكريم بسورة كاملة تقرر لها جميع الحقوق المدنية والمالية والاجتماعية . ومن إنصاف المرأة أن قرر الإسلام قوامة الرجل عليها وذلك تحقيقا للنظام الذى يقضى به كل مجتمع ، فإن كل جماعة مهما صغر عددها لابد وأن يكون فيها مشرفا عليها وراعيا لها وإلا أصابتها الفوضى والانحلال والعدم ، فعندما نظر الإسلام الى أول

لبنة فى المجتمع ، وهى زواج الرجل بالأنثى كان لابد أن يكون أحدهما قواما على الآخر . ويشترط فيه الصلاحية للعمل وإمكان تحمل السلطة والقدرة على التدبر والتفرغ وسرعة البت وسهولة الحركة لما يقتضيه ذلك من الانتقال والشراء والبيع والكسب وغير ذلك .. من تكاليف الإنفاق ويضاف إلى ذلك القوة .. جسدية وروحية وفكرية .. فهكذا يختار كل مجتمع قائده .. لذلك فإن تقرير الإسلام قوامة الرجل على المرأة لهو الحق كل الحق .. والعدل كل العدل .. وهو ما يتمشى فى كل عصر وكل أوان . . وفى هذا تقول الآية الشريفة : (الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ) . . . وهكذا أورد الإسلام القرار وأوضح أسبابه .. والإسلام هو أول دعوة أعطت المرأة حق التملك وهى ترث وتورث بنص مثل الآيات الشريفة : (وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ) ، (لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ) ...

وطالب بأن تكون العلاقة بين الرجل وزوجته علاقة مودة ورحمة بمثل الآية الشريفه : (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ

أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) .

والأمر الكريم بنصه الشريف : (وَعَاشِرُوهُنَّ بِالمَعْرُوفِ) . .

وراعى الإسلام حتمية الزواج فى جميع حالاته وظروفه ، فليس الزواج علاقة جسدية بين حيوانين ، وليس علاقة بين ملكين .. فياترى هل لو وجد الاختلاف بين الزوجين واستحال العيش بينهما .. كيف تدوم هذه الحياة ؟ .. إنه لهدم للرجل .. وتحطيم للمرأة .. و إفناء للمجتمع .. فلا سبيل لذرية بينهما و إن وجدت لكانت بئس الذرية إذ ستنتابها العقد النفسية .. والآلام الداخلية .. فأوجد الإسلام الحل الذى لجأت إليه الأمم بل تدعو إليه كافة الدراسات والوسائل الحديثة فى نص الآية الشريفه : (وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً) . . فعند ظهور بوادر عصيان المرأة أو استهتارها فعلى الرجل أن يعظها بتحذيرها وتبصيرها وتفهيمها .. وهذا منتهى العقل والكياسة والرحمة والمحبة فإن ارتدعت فخير كثير والا فليهجر الرجل مضجعها حرمانا لها من التمتع بأنوثتها . . ولم يطلب

الإسلام من الرجل أن يهجرها هى .. بل يظل معها ينفق عليها و يقوم
بشأنها فيما عدا فراشها فيحرمها من هذه العاطفة .. فإذا لم ترتدع فعليه
أن يضربها .. ضربا خفيفا مثلما يحاول الإنسان به تأديب أولاده . .
فلا وحشية ولا إهانة .. كما قد يتبادر إلى الذهن إنما هى مرحلة ثالثة
من مراحل إصلاح المرأة بعد يأس الرجل فى مرحلتين سابقتين .. وعلى
الرجل وقف كل حالة فور صلاح المرأة فلا يبغى عليها السبيل.. وإذا استفحل
الخلاف واشتد النزاع وأصبح الشقاق متوقعا فعلى الرجل أن يجمع حكما
من أهله وحكما من أهلها .. ويكون هذا تشريعا يسبق كافة
التشريعات التى تنادى بها المحاكم الخاصة الحكومية أو الأهلية التى
تنظر فى شأن كل الخلافات بين الزوجين وتحكم بما من شأنه
إعادة الوئام والمحبة بين الزوجين بنص الآية الشريفة : (وَإِنْ خِفْتُمْ
شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا
إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا
خَبِيرًا) . . وإذا استحال الصلح وتعذرت الحياة الزوجية وكان لابد
من الطلاق يوصى الإسلام بالإحسان والمعروف وألا يعتدى الرجل بأى
صورة كان الاعتداء بنص الآية الكريمة : (وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ

فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلاَ تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لِتَعْتَدُوا) .. وهكذا وضع الإسلام تشريعات حقوق المرأة . وسبق بذلك كل المحاولات التى تحاولها الهيئات والحكومات والجماعات وما من تشريع وضعى فى هذا الشأن إلا وتشريع القرآن الكريم يفوقه بما لا يمكن وضعه موضع المقارنة ويسبقه بعشرات المئات من السنين .

ولا يمكن أن توضع أحكام المواريث كما أمر بها الإسلام موضع المقارنة مع أية أحكام سواء فى الماضى أو الحاضر أو المستقبل، ويكفى أن تلجأ كافة الدول إلى تشريعات القرآن الكريم تستخلص منها ما تجعله أساسا فى أحكامها .. فياترى أى حكمة تكمن وراء توريث الابن الأكبر كل مايتركه والده . ؟ وأى هدف ياترى هدف إليه الشارع من ذلك ؟ وياترى كيف يكون الحال لو كان هذا الابن سفيها أو معتوها أو قاسيا .. أو عمد إلى حرمان إخوته وأمه من عطفه أو من بعض مال ابيهم ..

وياترى لماذا تعطى الشريعه اليهودية البكر من الأولاد نصيب اثنين من إخوته .. بينما الصغار فى حاجة أكثر إلى المال باعتبار أنهم

سيقضون زمنا أطول حتى يصلوا إلى سن البكر ؟ . ولماذا كان العرب يحرمون المرأة من الميراث .. وكذلك صغار الأولاد؟ هل ما يستندون إليه يعتبر حقاً عندما يدافعون عن نظامهم هذا بقولهم : لا يرث إلا من يدافع عن العشيرة ويحمى الذمار، ثم كيف تحرم الأم والأب من مال ولدهما إذا مات وتركها فى شيخوخة وعجز ؟ ... ومن النظم التى لا يمكن الوقوف إلى هدفها تلك التى تسوى بين الأقرباء فى أنصبة الميراث فيعطى بعيد القرابة كقريب القرابة دون تفرقه . ولكن الإسلام فيما قرره من نظام المواريث راعى العدالة كل العدالة ، وهدف إلى تحقيق الإنسانية ومحاربة العوز والفاقة والمحافظة على أواصر المحبة بين أفراد العائلة الواحدة .. وتمشى مع الطبيعة والفطرة .. والآيات التى أوردت أحكام المواريث وقررته كثيرة منها : (يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِى أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ

وصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لاَ تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِنَ اللهِ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً . وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْدَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْدَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍ وَصِيَّةً مِنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ) . وتستمر آيات المواريث فلا تترك حالة إلا وتقرر الحكم فيها ومايتخذ بشأنها بما يحقق الصالح العام . ؛ بل قرر للأقربين

أيضاً حقوقا فى الميراث بنص الآية الشريفة : (وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا) .

ووضع الإسلام أصول وقواعد المعاملات بين أى طرفين تعتبر قمة فى القوانين والتشريعات ، فالآيات الشريفة : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلاَ يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ وَلاَ يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْلاَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ

إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِى اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ) ..

ينبثق من هاتين الآيتين ومثلهما تشريعات فى المعاملات والمداينات والإثبات .. إذا وضعت مجلدات فيها لاتصل إلى ما جاءت به فهى تقرر إباحة التداين إلى أجل مسمى وأوردت حكم

التداين إلى أجـل غير مسمى .. وحددت قاعدة الإثبات فى المداينات بوجوب الـكتابة ، بل وحددت كيفية الـكتابة وشخصية الـكاتب فيختص بالـكتابة (كاتب بالعدل) وهو ما يقابل فى التشريعات الوضعية الحديثة (الموثق) ويـكتب هذا الـكاتب بإملاء المدين أووليه ، وعلى هذا المملى أن يمل بالعدل ، فلا يبخس من الدين شيئاً ، وأركان الـكتابة هى الإشهاد عليها ، وتحرير أجـــل الدين . ويجوز الاستغناء عن الـكتابة إذ تعذر ذلك لعدم وجود الـكاتب فى السفر وحينئذ يجوزالتوثيق بالرهن ، وكذلك فى المعاملات التجارية تيسيرا لأمر إجرائها ، وعندها يجب الإشهاد على البيع ، و قررت هاتان الآيتان علاوة على ذلك حقوقا للـكاتب وواجبات عليه ، فكما أنه له الأمان على عمله هـذا ولا يضار بسببه فعليه أن يؤدى عمـله بالأمانة التامة ، وكذلك قررت للشاهد الأمان وعدم المضارة فى نظير الشهادة العادلة وعدم كتمانها . وتستمر الأحوال فى هذه الآيات لتسبق كل تشريع وضعى فى المعاملات والمداينات والإثبات ...

والإسلام بما أمر به من الوفاء بالعقود إنما يسبق كافة القوانين الوضعية ، و إذا كان الأمر بالآية لا يزيد على كلمتين اثنتين فلا يمكن أن يأتى أى تركيب فى اللغة ، ولا دعوة فى قانون بأتم ولا أشمل ولا أدق

من الآية الشريفة التى نصها : (يَا أَيُّهَا الذين آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ) .

وإذا كانت الدعوة إلى التعاون هو الطابع المميز للعصر الحديث ، فإن الدول لتتسارع الآن فى تطبيق التعاون فى مختلف ميادينها وتدعو إليه باعتبار أنه نظام يهدف إلى زيادة الإنتاج بأقل النفقات ويوفر للمواطنين كافة احتياجاتهم وتحاول الدول أن تثبت سبقها إلى ميدانه بعد أن ثبت أن التعاون أفضل نظام يحقق رفاهية البشر . . إلا أن التاريخ يقرر فى ذلك حقيقة هامة وهى أن الإسلام سبق كل هذه الدعوات بأربعة عشر قرنا من الزمان ، فهو أول دعوة الى التعاون عرفها البشر على وجه الإطلاق إذ تقول آيات القرآن الكريم : (وَتَعَاوَنوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللّهَ إِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) . هذه دعوة الإسلام إلى التعاون تمتاز عن غيرها لا باسبقيتها فقط ، الأمر الذى يؤكد أن النظم الحالية المختلفة إنما نقلت عنه ، ولكن بأنها عممت الدعوة فى كل النواحى الإنسانية من اقتصادية وثقافية وعمرانية وصحية وإنتاجية واستهلاكية وغيرها من نواحى البر . . وتنهى فى الوقت نفسه عن المشاركة فى أى إثم

أو عدوان ... واذا كان التعاون فى النظم الحديثة يحرص على قيام الأخوة بين أفراد المجتمع بما يدعو إليه من قيام التشكيلات فإن الإسلام سبقه بهذه الدعوة ولكن ككل تشريعات الإسلام .. تمتاز بالقصد الحسن والهدف الطيب وتعميم الخير بألفاظ غاية فى البلاغة والروعة فى مثل الآية الشريفة (وَٱعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) ، (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ) .

ولقد أوجد الاسلام أصولا فى التقنين لم تكن معروفة من قبل ، وظهرت الحاجة ماسة إليها فى عصرنا الحديث الأمر الذى لجأت إليه كافة القوانين فى عصر النهضة التشريعية ، ففى جزء من آية شريفة نجد نصا يقول : (فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) . وكذلك فى آيات مماثلة نجد (فَمَنْ

اضْطرَّ غَيْرَ بَاغٍ ولاَ عَادٍ فَإنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) ، (فَمَن اضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيرَ مُتَجَانِفٍ لإثْمٍ فَإنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .
وهذه النصوص إنما تقرر نظرية الضرورة وأصلها علماء القانون بأن الضرورات تبيح المحظورات .

ومن ضمن ما جد فى القوانين الوضعية حماية للمجتمع ، النصوص التى تحارب الجهر بفاحش القول أو سيئه حتى لاتتأذى أسماع الناس من هذا الجهر وحماية لأخلاقهم من أن تكتسب مثل تلك الألفاظ ، وأيضا نجد القرآن الكريم قد سبق هذه القوانين بعشرات المئات من السنين بنص الآية الشريفة : (لاَ يُحِبُّ اللّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إلاَّ مَنْ ظُلِمَ) .

كما أوردت الآية الشريفة العذر الذى عنده يمكن للانسان أن يجهر بالسوء من القول ألا وهو الظلم ، فيمكنه دفعا للظلم وإعلانا لما أصابه أن يجهر بالسوء ...

ولم يترك القرآن الكريم جريمة إلا وأورد وصفها وأركانها وقيام الحجة على مرتكبها والعقوبة المقررة لها .. ولا تقتصر تشريعات القرآن

الكريم على النظام القضائي ، بل إنه سبق فى كل نواحى الحياة فوضع أسس النظام السياسى ، فقرر علاقة الحاكم بالمحكوم وطالب الحاكم بالعدل التام بين الرعايا حتى ولو كان من هؤلاء الرعايا أعداء .. ولو أعداء فى الدين .. بنص مثل الآيات .. (وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ) ، (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ نَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا) . . وكما طالب المسلمين بطاعة حاكمهم إذا كان منهم بنص الآية الشريفة :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ) فإنها بنفس النص تطالب المسلمين بعدم طاعتهم لمن يتولى عليهم من غيرهم كمستعمر أو أجنبى وغير المسلم .... وحدد القرآن الكريم ما يجب أن يكون عليه الوالى فى آيات كثيرة مثل : (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ

فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يحبُّ المُتَوَكِّلِينَ)، (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسولٌ مِنْ أَنفسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ علَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ)، (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَافَعَلْتُمْ نَادِمِينَ) . . .

وإذا كانت هذه الآيات نزلت فى النبى ورسمت له وأوضحت للمسلمين ماهوعليه ، فإن القرآن الكريم قد دعانا إلى أن نتأسى به وبسيرته بنص الآية الشريفة (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا).

وكذلك أوضح القرآن واجبات المحكومين فى مثل الآية الشريفة :

(وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الأَمْنِ أَوِ الْخوفِ ادعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوه إِلَى الرَّسُولِ وَإِلى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ) إذ يجب على الأفراد ألا يقوموا بأعمال منفردة مما يتصل بشئون الدولة أمنها وسياستها وأن عليهم أن يرفعوا إلى أولى الأمر كل ما يصل إليهم من شائعات أو أخبار ليتولوا هم معالجة أمور

الدولة بما يعود عليها بالخير .. ، . وكذلك على المحكومين أن يتضامنوا ويتحدوا فى نطاق الدولة فلا يختلفوا ولا يتنازعوا ولا يحاربوا ولاة أمورهم طالما هم لخير الدولة يعملون وذلك بنص الآيات :(وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا) ، (وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ) . وطالب بالشورى بين الحاكم والمحكومين بنص الآية الشريفة (وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) . وإذا كانت الدول على اختلافها تعانى من الرشوة التى تفشت إذ يحاول الإنسان الرشوة ليأخذ أكثر من حقه وتحاول القوانين الوضعية معالجة هذه الكارثة الخلقية الشديدة فإن القرآن الكريم قد سبق إلى الأمر بمنعها بنص الآية الشريفة : (وَلاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلوا فَرِيقاً مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) .

ووضع القرآن الكريم نظاما ماليا محكما يحقق صالح المجتمع

وسعادة الفرد ولا يمكن لأى نظام وضعى أن يرقى ولن يستطيع أن يرقى إلى النظام الإسلامى ففيه كل مزايا الانظمة الوضعية دون مبالغتها التى تفقدها صلاحيتها للجميع ودون عيوبها ، فهو نظام شامل فى عدله محقق لسعادة كافة أفراده لا يعادى رأس المـــال . . ولا يشجع على طغيانه .. ولا يهـــدم الفردية ولا يوافق على سيطرة فرد على مجموعة تسبب احتكارا أو استغلالا .. يشجع على العمل والثراء عن طريق الـكسب الحلال مع مراعاة الفقير والمحتـاج فله حق ثابت . . ونسبة محددة .. وعليـــه بعـد ذلك الصدقة . . ما أمـكنه إلى ذلك السبيل .... فبعد أن أمر بالصدقة وحث عليها جعلها وكأنها قرض لله بنص الأية الشريفة (مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللّٰهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللّٰهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) . بل ليس أكثر حثا على أدائها من أن الله سبحانه وتعالى قرر أن الصدقات كأنها يأخذها سبحانه بنص الآية الـكريمة (أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللّٰهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللّٰهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) . كما قرر نصيبا غيرها ثابتا وأوجب على الدولة جبايته إذ تقرر الآيات

أنها حق والحقوق يجب أن تؤدى بنص الآيات الشريفة : . .
(وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً) ، (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ . كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ . وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ . وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ) .. ثم نجد الأمر الصريح بجبايتها فى نص الآية الكريمة ..(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا) ، وأما من تصرف عليهم الزكاة فهم الفقراء والمساكين ، وهم من أعجزهم السن أو المرض عن الكسب ؛ والعاملون عليها ، وهم جباة الزكاة ، و يأخذ كل فرد منهم بقدر عمله ؛ ويصرف كذلك من الزكاة سهم للدعوة الإسلامية عن طريق من يخدمون الإسلام بها وهم المؤلفة قلوبهم ؛ وكذلك لتحرير الرقاب أو رفع مستوى المحتاجين بعد أن انتهى الرق ؛ وكذلك على من أثقلت الديون كاهلهم فلا يقعون فريسة للديون أو المرابين أو الطامعين ؛ وسهم من الزكاة يصرف على كل ما يحقق مصلحة لدين الله ؛ وسهم آخر يصرف منه على الغرباء

الذين انقطعت عنهم بسبب السفر موارد مالهم . . وذلك بنص الآية الشريفة : (إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ) هل تركت الآية الشريفة من يستحق مساعدة ولم تشمله ببرها وعطفها . . ؟ وهل يمكن لمجتمع هكذا تتجاوب أفراده بالرحمة والمحبة والعطف . . أن يخشى عليه من قيام الثورات أو انتشار الأحقاد . . أو يناله الفساد بأى لون . . ولأى سبب ؟ . .

ولا يتسع المجال . . أيا كان قدره إلى بيان التشريعات التى سبق بها القرآن الكريم كافة التشريعات الوضعية ويكفى ماشهد به الخصوم من أن القرآن الكريم فى ميدان التقنين يعتبر أصلا لا يبارى . . ولا تقتصر تشريعات القرآن على النظم القضائية والسياسية والمالية ، بل إنه وضع أسس النظام الجهادى ، وقواعد الدعوة إلى سبيل الله ، وأثبتت الدراسات الحديثة أن القرآن الكريم أول دعوة فى العالم للتضامن الاجتماعى ،وأول دستور وضع نظام الأسرة والآداب السلوكية وأورد مبادئ الاجتماع ، ودعا إلى الأخلاق ، ورسم خطة إصلاح الإنسان ومعالجته عضويا واجتماعياً ونفسياً وروحياً .

هذه مجرد أمثلة .. وأمثلة قصيرة وسريعة على ما فى القرآن الكريم ـ أصل الإسلام وكتاب المسلمين ـ من إعجاز علمى يشمل كافة العلوم بلا استثناء ، التى اكتشفت والتى ما زالت موضع البحث أو الرجاء ، ويسبقها فى كل ميادينها سبقا زمنياً يمثله عشرات المئات من السنين وسبقاً نوعياً يظهر فيما تورده الآيات الكريمة من حقائق قاطعة لا يجرى عليها ما يجرى على العلم من فروض تتعدل ونظريات تتحول ، وآراء تتبدل إنما هى الحق الساطع والقول الصادق لا يأتيه الباطل ولا يرقى إليه الشك .

وإذا كان المسلمون فى عهودهم الأولى قد حققوا ، بالاستجابة لما دعاهم إليه الله فى قرآنهم العظيم وما حثهم عليه رسوله الكريم ، نهضة علمية كانت هى قمة ما وصل إليه العلم وأخذت عنهم كافة الدول والأمصار ، وكل حضارة فى أى جهة كانت ، إنما على أساس علمهم قامت ، فياترى كيف يكون حالنا بعد أن أظهرت الدراسات . . أن كل آية من آيات القرآن إنما تتضمن علوما عديدة . ، وتوجيهات سديدة ، علاوة على ما فى ألفاظها من إبداع وبلاغة . . ومنتهى الأدب والفصاحة ؟ . . .

وإذا كان الله سبحانه وتعالى يأمرنا بتبليغ الدعوة إلى الجميع . .

عن طريق الإقناع بالحكمة والموعظة الحسنة بنص الآية الشريفة :

(ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) .

فهل هناك من وسيلة أبلغ وأكثر إقناعاً فى عصرنا هذا من إظهار إعجاز القرآن الكريم وسبقه للعلم فى عهد العلم وعصر العلماء ؟ . .

وهكذا أنهى الإسلام عهد الخرافة التى كانت تقول بمعارضة العلم للدين .

فإن كل متدبر لآيات القرآن الكريم ليؤمن حقا بأن الإسلام يدعو إلى العلم ويدعو إليه العلماء .. وإن العلم إنما يؤيده بل ويعترف بأسبقيته .

(وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(صدق الله العظيم)

فهرست

مطبعة الاستقلال الكبرى
٨ ش نجيب الريحانى ت : ٤٧٤٨٦

هذا الكتاب

- « إذا كان العلم يتفق مع الدين فى الهدف ويرتبط معه فى المصدر .. فكيف إذاً تتردد الأقوال أحياناً بأن العلم والدين لا يتفقان ؟ .. ولماذا يظهر العلم أحياناً وكأنه يعارض الدين ؟ .. »

متى تتردد هذه الأقوال ؟ ؟ .. ولماذا ؟ ؟

- « إن الشواهد لتؤكد أن موجة الإلحاد التى كانت منتشرة فى بعض الجهات فى طريقها إلى الإنحسار بل إلى العدم ، فقد تتابع إيمان العلماء الذين ظلوا يحاربون الدين أمداً طويلا .. ونسمع الآن فى كل مكان من العالم النداءات الصادقة التى تطالب بمزيد من المعرفة عن الأديان » .

ما هو واجبنا الآن ؟ .. وكيف نؤديه ؟ ..

- إن هذا الكتاب يقص تاريخ اللقاء والصراع بين الدين والعلم منذ الإنسان الأول إلى أن جاء الاسلام .. الدين الذى يدعو إلى العلم ويدعو إليه العلماء ..

- ويسر مكتبة وهبه أن تقدم إلى القراء هذا الكتاب الجديد فى مجموعة (نوفل) التى تعتبر أول مجموعة ربطت بين الدين والعلم وأنشأت مدرسة جديدة للدعوة الاسلامية .

مكتبة وهبه